المراكب إلى عكا فتأخر إنفاذها فسير إلى نائبه بمدينة بيروت في ذلك ، فسيّر بطسة عظيمة مملوءة من كل ما يريدونه وأمر من بها، فلبسوا ملبس الفرنج وتشبهوا بهم ورفعوا عليها الصلبان ، فلما وصلوا إلى عكّا لم يشك الفرنج أنها لهم فلم يتعرضوا لها، فلما حازت ميناء عكّا ادخلها من بها ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت نفوسهم ، وتبلغوا بما فيها إلى أن أتتهم الميرة من الإِسكندرية ، وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل ، فأُخذت بنواحي الإسكندرية وأخذ من معها ، ثمَّ إن الفرنج وصلهم كتاب من بابا وهو كبيرهم الذي يصدرون عن أمره وقوله عندهم كقول النبيين لا يخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب عن قربه وهو صاحب رومية الكبرى يأمرهم بملازمة ما هم بصدده ويعلمهم أنه قد ارسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم براً وبحراً ، ويعملهم بوصول الأمداد إليهم ، فازدادوا قوة وطمعاً .

ذكر خروج الفرنج من خنادقهم

لما تتابعت الأمداد إلى الفرنج وجند لهم الكند هري جمعاً كثيراً بالأموال التي وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين ، فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها وخرجوا حادي عشر شوال في عدد كالرمل كثرة وكالنّار جمرة، فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى ميمون ، وهو على ثلاثة فراسخ عن عكّا، وكان

قد عاد إليه من فرق من عساكره لما هلك ملك الألمان ، ولقي الفرنج على تعبية حسنة ، وكان أولاده الأفضل علي والظاهر غازي والظافر مما يلي القلب ، وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة، ومعه عساكر مصر ومن انضم إليه ، وكان في الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماه ومعز الدين سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه ، واتفق أن صلاح الدين أخذه مغس كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ، ونزل فيها ينظر إليهم ، فسار الفرنج شرقي نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر، فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ، ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس ، فلما رأوا ذلك تحولوا إلى غربي النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً، وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس ، وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة

خنادقهم ، فلزموا مكانهم وباتوا ليلتهم تلك ، فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخندقهم والجالشية في اكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام ، وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم ، فلولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل ، وإنما لله أمر هو بالغه ، فلما بلغ الفرنج خندقهم ، ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون إلى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً، وفي الثالث والعشرين من شوال أيضاً كمن جماعة من المسلمين ، وتعرض للفرنج جماعة أخرى، فخرج إليهم أربعمائة فارس ، فقاتلهم المسلمون شيئاً من قتال ، وتطاردوا لهم ، وتبعهم الفرنج حتى جازوا الكمين ، فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد، واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة اكثر من مائة دينار صوري ، فصبروا على هذا ، وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان منهم الأمير اسامة مستحفظ بيروت كان يحمل الطعام وغيره ، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب كان يحمل من صيدا أيضاً إليهم ، وكذلك من عسقلان وغيرها لولا ذلك لهلكوا جوعاً خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عند تهيج البحر.

ذكي تسيير البدل إلى عكا والتفريط فيه حتى أخذت

لما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لأنها لم تمكن من المينا، فسيروها إلى بلادهم صور والجزائر، فانفتح الطريق إلى عتها في البحر، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة

والسآمة ، وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدماً على جندها، وأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من فيها ، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك ، فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني ، وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إليها وأخرج عوضهم ، فدخل إليها عشرون أميراً وكان بها ستون أميراً فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا ، وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنقاذهم ، وكان على خزانة ماله قوم من النصارى، وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتّى تارة بإقامة معرفة وتارة بغير ذلك ، فتفرق بهذا السبب خلق كثير، وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب ، فانحسر الشتاء والأمر ، كذلك وعادت مراكب الفرنج إلى عكا وانقطع الطريق إلا من سابح يأتى

بكتاب ، وكالت من جملة الأمراء الذين دخلوا إلى عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الأسدية بعد جاولي وغيرهم ، وكان دخولهم عكّا أول سنة سبع وثمانين ، وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة ، ويأمرهم بالمقام ، فإنهم قد جربوا وتدربوا ، واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه ، فلم يفعل ، وظن فيهم الضجر والملل وأن ذاك يحملهم على الضجر والفشل ، فكان الأمر بالضد .

ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل ومسير أخيه مظفر الدين إليها

كان زين الدين يوسف بن زين الدين عني صاحب إربل قد حضر عند صلاح الدين بعساكره فمرض ومات ثامن عشر شهر رمضان ، وذكر العماد الكاتب في كتابه البرق الشامي ، قال : جئنا إلى مظفر الدين نعزيه بأخيه ، وطننّا به الحزن ، وليس له أخ غيره ولا ولد يشغله عنه ، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء مهتم بالاحتياط على ما خلفه ، وهو جالس في خيام أخيه المتوفّى، وقد قبض على جماعة من أمرائه ، واعتقلهم وعجل عليهم ، وما أغفلهم منهم بلد أجي صاحب قلعة خفتيذكان ، وأرسل إلى صلاح الدين يطالب منه إربل لينزل عن حران والرها ، فأقطعه إياها ، وأضاف إليها شهرزور وأعمالها ودربندقرابلي وبني قفجاق ، ولما مات زين الدين كاتب من كان بإربل مجاهد الدين قايماز لهواهم فيه وحسن سيرته كانت فيهم وطلبوه إليهم ليملكوه ، فلم يجسر هو ولا صاحبه عز الدين أتابك مسعود بن مودود على ذلك خوفاً من

صلاح الدين ، وكان أعظم الأسباب في تركها أن عز الدين كان قد قبض على مجاهد الدين ، فتمكن زين الدين من إربل ، ثم إنّ عز الدين أخرج مجاهد الدين من القبض وولاه نيابته وقد ذكرنا ذلك أجمع ، فلما ولاه النيابة عنه لم يمكنه ، وجعل معه إنساناً كان من بعض غلمان مجاهد الدين ، فكان يشاركه في الحكم ، ويحل عليه ما يعقده ، فلحق مجاهد الدين من ذلك غيظ شديد، فلما طلب إلى إربل قال لمن يثق إليه :لا أفعل لئلا يحكم فيها فلان ويكف يدي عنها ، فجاء مظفر الدين إليها وملكها وبقي غصّة في حلق البيت الأتابكيِ لا يقدرون على إساغتها وسنذكر ما اعتمده معهم مرة بعد أخرى إن شاء اللّه تعالى .

ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها إلى المسلمين

في هذه السنة ملك ابن الرنك ، وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الأندلس مدينة

شلب ، وهي من كبار مدن المسلمين بالأندلس ، واستولى عليها، فوصل الخبر بذلك إلى الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب الغرب والأندلس ، فتجهَّز في العساكر الكثيرة، وسار إلى الأندلس ، وعبر المجاز، وسيَّر طائفة كثيرة من عسكره في البحر ونازلها وحصرها وقاتل من بها قتالاً شديداً حتى ذلوا وسألوا الأمان فأمنهم ، وسلموا البلد وعادوا إلى بلادهم ، وسيَّر جيشاً من الموحدين ومعهم جمع كثير من العرب ، ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة، وفتكوا في الفرنج ، فخافهم ملك طليطلة من الفرنج وأرسل يطلب الصلح فصالحه خمس سنين ، وعاد أبو يوسف إلى مراكش ، وامتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها ولا امكنهم إظهار الخلاف ، فبقوا متوقفين حتى دخلت سنة! إحدى وتسعين وخمسمائة، فتحركوا، وسنذكر خبرهم هناك إن شاء الله تعالى .

ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان

كان سلطان شاه أخو خوارزم شاه قد تعرّض إلى بلاد غياث الدين ومعز الدين ملكي الغورية من خراسان ، فتجهّز غياث الدين ، وخرج من فيروزكوه إلى خراسان سنة خمس وثمانين وخمسمائة، فبقي يتردّد بين بلاد الطالقان وينجده ومرو وغيرها يريد حرب سلطان شاه ، فلم يزل كذلك إلى أن دخلت سنة ست وثمانين ، فجمع سلطان شاه عساكره ، وقصد غياث الدين ، فتصافا ، واقتتلا ، فانهزم سلطان شاه ، وأخذ غياث الدين بعض بلاده ، وعاد إلى غزنة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الأول تسلم الخليفة الناصر لدين الله حديثة عانة ، وكان ستر إليها جيشاً حصروها سنة خمس وثمانين ، فقاتلوا عليها قتالاً شديداً ، ودام الحصار وقتل من الفريقين خلق كثير، فلما ضاقت عليهم الأقوات سلَّموها على اقطاع عينوها، ووصل صاحبها وأهلها إلى بغداد وأعطوا أقطاعا ، ثم تفرّقوا في البلاد ، واشتدت الحاجة بهم حتى رأيت بعضهم وأنه يتعرض بالسؤال إلى بعض خدم الناس نعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته .

وفي هذه السنة توفي مسعود بن البادر، وكان مكثراً من الحديث حسن الخط خيراً

وفيها توفي أبو حامد محمد بن عبد اللّه بن القاسم الشهرزوري بالموصل ، كان قاضياً وقبلها ولي قضاء حلب وجميع الأعمال ، وكان رئيساً جواداً ذا مروءة عظيمة يرجع إلى دين وأخلاق .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة

في هذه السنة في ربيع الأول سار أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى جزيرة ابن عمر فحصرها، وكان بها صاحبها سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود، وهو ابن اخي عز الدين ، وكان سبب حصره أن سنجرشاه كان كثير الأذى لعمه عز الدين ، والشناعة عليه والمراسلة إلى صلاح الدين في حقه ، تارة يقول : إنه يريد قصد بلادك ، وتارة يقول : إنه يكاتب أعداءك ويحثهم على قصدك إليٍ غير ذلك من الأمور المؤذية ، وعز الدين يصبر على ما يكره لأمور، تارة للرحم وتارة خوفاً من تسليمها إلى صلاح الدين ، فلما كان في السنة الماضية سار صاحبها إلى صلاح الدين وهو على عكّا في جملة من سار من أصحاب الأطراف ، وأقام عنده قليلاً وطلب دستوراً للعود إلى بلده فقال له صلاح الدين : عندنا من أصحاب الأطراف جماعة منهم عماد الدين صاحب سنجار وغيرها، وهو أكبر منك ، ومنهم ابن عمك عز الدين وهو أصغر من وغيرهم ، ومتى فتحت هذا الباب اقتدى بك غيرك ، فلم يلتفت إلى قوله وأصر على ذلك ، وكان عند صلاح الدين جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على سنجر شاه لأنه ظلمهم وأخذ اموالهم وأملاكهم ، فكان يخافه لهذا ولم يزل في طلب الإذن في العود إلى البلد إلى عيد الفطر من سنة ست وثمانين ، فركب تلك الليلة سنجرشاه وجاء إلى خيمة صلاح الدين ، وأذن لأصحابه في المسير فساروا بالأثقال ، وبقي جريدة، فلتا وصل إلى خيمة صلاح الدين أرسل يطلب الإذن ، وكان صلاح

الدين قد بات محموماً وقد عرق فلم يمكن أن يأذن له ، فبقي كذلك متردّداً على باب خيمته إلى أن أذن له ، فلما دخل عليه هنأه بالعيد وأكب عليه يودعه ، فقال له : ما علمنا بصحة عزمك على الحركة فتصبر علينا حتى نرسل ما جرت به العادة، فما يجوز أن تنصرف عنا بعد مقامك

عندنا على هذا الوجه ، فلم يرجج وودعه وانصرف ، وكان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قد أقبل، من بلده حماه في عسكره ، فكتب إليه صلاح الدين يأمره بإعادة سنجرشاه طوعاً أو كَرهاً، فحكى له عن تقي الدين أنه قال : ما رأيت مثل سنجرشاه لقيته بعقبة فيق ، فسألته عن سبب انصرافه فغالطني فقلت له: سمعت بالحال ولا يليق أن تنصرف بغير تشريف السلطان وهدية، فيضيع تعبك ، وسألته العود فلم يصغ إلى قولي فكلمني كأنني بعض مماليكه ، فلما رأيت ذلك منه قلت له : إن رجعت بالتي هي أحسن ؛ وإلَّا اعدتك كارهاً ، فنزل عن دابته وأخذ ذيلي وقال : قد استجرت بك ، وجعل يِبكي ، فعجبت من حماقته أولاً وذلته ثانياً، فعاد معي ، فلمّا عاد بقي عند صلاح الدين عشرة أيّام وكتب صلاح الدين إلى عز الدين أتابك يأمره بقصد الجزيرة ومحاصرتها، وأخذها ، وأنه يرسل إلى طريق سنجرشاه ليقبض عليه إذا عاد فخاف عز الدين أن صلاح الدين قد فعل ذلك مكيدة ليشنع عليه بنكث العهد، فلم يفعل شيئاً من ذلك بل أرسل إليه يقول أريد خطّك بذلك ومنشوراً منك بالجزيرة، فترددت الرسل في ذلك إلى أن انقضت سنة ست وثمانين ، فاستقرت القاعدة بينهما ، فسار عز الدين إلى الجزيرة فحصرها أربعة أشهر وأياماً آخرها شعبان ، ولم يملكها بل استقرت القاعدة بينه وبين سنجرشاه على يد رسول صلاح الدين ، فإنه كان قد أرسل بعد قصدها يقول : إن صاحب سنجار وصاحب إربك وغيرهما قد شفعا في سنجرشاه ، فاستقر الصلح على أن لعز الدين نصف أعمال الجزيرة ، ولسنجرشاه نصفها ، وتكون الجزيرة

بيد سنجرشاه من جملة النصف ، وعاد عز الدين إلى الموصل ، وكان صلاح الدين بعد ذلك يقول : ما قيل لي عن أحد شيء من الشر فرأيته إلا كان دون ما يقال فيه إلا سنجرشاه ، فإنه كان يقال لي عنه أشياء استعظمتها، فلما رأيته صغر في عيني ما قيل .

ذكر عبور تقي الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيره إلى خلاط وموته

في هذه السنة في صفر سار تقي الدين من الشام إلى البلاد الجزرية حران والرها ، كان قد أقطعه أياها عمه صلاح الدين بعد أخذها من مظفر الدين مضافاً إلى ما كان له بالشام ، وقرَّر معه أنه يقطع البلاد للجند ويعود وهم معه ليتقوى بهم علي الفرنج، فلما عبر الفرات وأصلح حال البلاد سار إلى ميافارقين ، وكانت له ، فلما بلغها تجدّد له طمع

فى غيرها من البلاد المجاورة لها، فقصد مدينة حانى من ديار بكر فحصرها وملكها ، وكان في سبعمائة فارس ، فلما سمع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط بملكه حانى . جمع عساكره وسار إليه ، فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس ، فلما التقوا اقتتلوا، فلم يثبت عسكر خلاط لتقي الدين بل انهزموا وتبعهم تقي الدين ودخل بلادهم ، وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رشيق وزير صاحبه شاه م رمن وسجنه في قلعة هناك ، فلما انهزم كتب إلى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق ، فوصل القاصد وتقي الدين ، قد نازل القلعة، فاخذ الكتاب وملك القلعة وأطلق ابن رشيق وسار إلى خلاط فحصرها، ولم يكن في كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضا، فعاد عنها وقصد ملازكرد وحصرها، وضيّق على من بها وطال مقامه عليها، فلما ضاق عليهم الأمر طلبوا منه المهلة أياما ذكروها ، فأجابهم إليها ومرض تقي الدين ، فمات قبل انقضاء الأجل بيومين وتفرقت العساكر عنها ، وحمله ابنه وأصحابه ميتاً إلى مياقارقين ، وعاد بكتمر قوي أمره ، وثبت ملكه بعد أن أشرف على الزوال ، وهذه الحادثة من الفرج بعد الشدة فإن ابن رشيق نجا من القتل وبكتمر نجا من أن يؤخذ.

ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكا

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج الذين على عكا، وكان أول من ومهل منهم الملك فليب ملك أفرنسيس ، وهو من أشرف ملوكهم نسباً وإن كان ملكه ليس بالكثير، وكان وصوله إليها ثاني عشر ربيع الأول ، ولم يكن في الكثرة التي ظنوها، له نما كان معه ست بطس كبار

عظيمة، فقويت به نفوس من على عكا منهم ، ولحوا في قتال المسلمين الذين فيها، وكان صلاح الدين بشفرعم ، فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد ، وأرسل إلى الأمير أسامة مستحفظ بيروت ، يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب ، وتشحينها بالمقاتلة، وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا، ففعل ذلك وسير الشواني في البحر فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالاً من أصحاب ملك إنلكتار الفرنج ، وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها، فاقتتلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج ، فاستظهر المسلمون عليهم ، وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال ، وأسِروا الرجال .

وكتب أيضاً صلاح الدين إلى من بالقرب فن النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا، وأما الفرنج الذين على عكا، فإنهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الأولى ، فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء إليهم والعود عنهم ، فقرب منهم ، وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم ، فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بالبلد، ثم وصل ملك إنكلتار ثالث عشر جمادى الأولى ، وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها من الروم ، فإنه لما وصل إليها غدر بصاحبها وملكها جميعاً، فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج ، فلما فرغ منها سار عنها إلى من على عكا من الفرنج ، فوصل إليهم في خمس وعشرين قطعة كباراً مملوءة رجالاً وأموالًا ، فعظم به شر الفرنجٍ ، واشتدت نكايتهم في المسلمين ، وكان رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبرا ، وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها . ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بسطة كبيرة مملو ة من الرجال والعدد والأقوات فتجهزت وسيرت من بيروت ، وفيها سبعمائة مقاتل : فلقيها ملك إنكلتار مصادفة: فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص ونزل مقدم من بها إلى أسفلها، وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين ، فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر، فغرق جميع ما فيها ، وكانت عكا محتاجة إلى رجال ، لما ذكرناه من سبب نقصهم ، ثم إن الفرنج عملوا دبابات

وزحفوا بها ، فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش ، فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيراً من التراب مستطيلاً ، وما زالوا يقربونه إلى البلد ، ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف علوه ، فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه ، فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها، فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم ، فلم يقدر لهم على نفع .

ذكر ملك الفرنج عكا

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا، وكان أول وَهْن دخل على من بالبلد، أن الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كان فيها، ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثلهم

صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم ، فشرع فى جمع المال ، وكان هو الأمان له إنما يخرج ما يحصل إليه من دخل البلاد أولًا بأول ، فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه ، وأن يضمن الداوية ذلك لأنهم أهل دين يرون الوفاء، فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية لا نحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا، وقال ملوكهم : إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب ، فلنا الخيار فيمن عندنا، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر، فلم يرسل إليهم شيئاً ، وأعاد الرسالة إليهم ، وقال : نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهناً على الباقي ، وتطلقون أصحابنا ، وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم ، فقالوا لا نحلف إنما نرسل المائة ألف دينار التي حصلت والأسرى والصليب ، ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال ، فعلم الناس حينئذ غدرهم ، وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤبه له ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال ويطلبون منهم الفداء، فلم يجبهم السلطان إلى ذلك ، فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل ، وركب المسلمون إليهم وقصدوهم ، وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم ، وإذ أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا

من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له ، فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسير الأسرى والصليب إلى دمشق .

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها

أما فرغ الفرنج – لعنهم الله –من إصلاح أمر عكا برزوا منها في الثامن والعشرين من رجب ، وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطىء البحر لا يفارقونه ، فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا، وكان على اليزك ذلك اليوم الملك الأفضل ولد صلاح الدين ، ومعه سيف الدين إيازكوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الأمراء ، فضايقوا الفرنج في مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس ، ووقعوا على ساقة الفرنج ، فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة، وأرسل الأفضل

إلى والده يستمده ويعرفه الحال ، فأمر العساكر بالمسير إليه ،فاعتذروا بأنهم ما ركبوا باهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لا غير فبطل المدد وعاد ملك الإنكلتار إلى ساقة الفرنج ، فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا، فنزلوا بها ونزل المسلمون بقيمون قرية بالقرب منهم ، وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعرض ما هلك من الخيل ، ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم من قدروا عليه ، فيقتلونه لأن صلاح الدين كان قد أقسم أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا، فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلاً كثيراً ونزل الفرنج بها، وبات المسلمون قريباً منهم ، فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم ، فأوقع بهم المسلمون الذين كانوا في اليزك فقتلوا منهم وأسروا منهم ، ثم ساروا من قيساريّة(1) إلى أَرْسُوف (2)، وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق ، فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة ألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم ، فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا، وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد، فولوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد وكان –كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريباً من المعركة، فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم ، فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين ، فلو علم الفرنج أنها هزيمة لتبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون لكن كان

بالقرب من المسلمين شعرة كثيرة الشجر فدخلوها وطنها الفرنج مكيدة، فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق ، وقتل من الفرنج كند كبير من طواغيتهم ، وقتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه أياز الطويل ، وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل الفرنج نزل المسلمون وأعنة خيلهم بأيديهم ، ثم سار الفرنج إلى يافا، فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها، ولما كان من المسلمين بأرسوف من الهزيمة ، ما ذكرناه ، سار صلاح الدين عنهم إلى الرملة واجتمع بأثقاله بها وجمع الأمراء ، واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له ش : قد رأيت ما كان منا بالأمس وإذا جاء

(1)قَيْسارية : بلد على ساحل بحر الشام تعد فى أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام .

(2) أرسوف : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا .

الفرنج إلى عسعقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلوننا لننزاح عنها وينزلون عليها، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا، ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها، فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس إلى دخولها وحفظها، فلم يجبه أحد إلى ذلك وقالوا : إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا ، فلما رأى الأمر كذلك سار إلى عسقلان وأمر بتخريبها تاسع عشر شعبان ، وألقيت حجارتها في البحر، وهلك فيها من الأموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره ، وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع ، ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها .

وكان المركيس – لعنه الله – لما أخذ الفرنج عكا قد أحس من ملك إنكلتار بالغدر به ، فهرب من عنده إلى مدينة صور، وهي له وبيده ، وكان رجل الفرنج رأيا وشجاعة وكل هذه الحروب هو أثارها، فلما خربت عسعقلان أرسل إلى ملك إنكلتار يقول له : مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً، ويتقدم س الجيوش تسع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها كنت سرت إليه مُجداً ، فرحلته وملكتها صفوا عفواً بغير قتال ولا حصار،فإنه ما خربها إلا وهو عاجز عن حفظها، وحق المسيح لو أنني معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برج واحد، فلما

خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان ، ومضى إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لدّ، وفي مدة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجاه الفرنج ، ثم سار صلاح الدين إلى القدس بعد تخريب الرملة، فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر، وقرر قواعدِه وأسبابه وما يحتاج إليه وعاد إلى المخيم ثامن رمضان ، وفي هذه الأيام خرج ملك إنكلتار من يافا ، ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم ، فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالاً شديداً، وكاد ملك إنلكتار يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه ، فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل ، وفيها أيضاً كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون .

لما رأى صلاح الدين أن الفرنج قد لزموا يافا، ولم يفارقوها وشرعوا في عمارتها رحل من منزلته إلى النطرون ثالث عشر رمضان وخيم به ، يراسله ملئا إنكلتار يطلب المهادنة : فكانت الرسل تتردّد إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخي صلاح الدين ، فاستقرت القاعدة أن ملك إنكلتار يزوج أخته من العادل ، ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل ، ويكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لأخت إنكلتار، مضافاً إلى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورضتها من زوجها، وأن يرض الداوية بما يقع الاتفاق عليه ، فعرضا، العادل ذلك على صلاح الدين فاجاب إليه ، فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان إنى أخت إنكلتار وأنكروا عليها، فامتنعت من الإجابة، وقيل كان المانع منه غير ذلك –والله أعلم – وكان العادل وملك إنكلتار يجتمعان بعد ذلك ويتجاريان حديث الصلح ، وطلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين ، فاحضر له مغنية تضرب بالجنك ، فغنت له ، فاستحسن ذلك ولم يتم بينهما صلح ، وكان ملك إنكلتار يفعل ذلك خديعة ومكراً، ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس ، فسار صلاح الدين إلى الرملة جريدة ، وترك الأثقال بالنطرون وقرب من الفرنج ، وبقي عشرين يوما ينتظرهم ، فلم يبرحوا، فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات في كلها ينتصر المسلمون على الفرنج ، وعاد صلاح الدين إلى النطرون ، ورحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذي القعدة على عزم قصد البيت المقدس ، فقرب بعضهم من

بعض ، فعظم الخطب واشتد الحذر، فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين باللقاء فلغوا من ذلك شدة شديدة،وأقبل الشتاء وحالت الأحوال والأمطار بينهما .

ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس

لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم ، والأمطار متوالية متتابعة والناس منها في ضنك وحرج ، ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم ، وكان كثير من العساكر قد طال ببكارها ، فأذن لهم في العود إلى بلادهم للإستراحة والإراحة ، وسار هو إلى البيت المقدس فيمن بقي معه ، فنزلوا جميعاً داخل البلد فاستراحوا مما كانوا فيه ، ونزل هو بدار الأقصى مجاور بيعة قمامة، وقدم إليه عسكر مصر مقدمهم الأمير أبو

الهيجاء السمين ، فقويت نفوس المسلمين بالقدس ، وسار الفرنج من الرملة الى النطرون ثالث ذي الحجة على عزم قصد القدس ، فكانت بينهم وبين يزك والمسلمين وقعات أسر المسلمين في وقعة منهانيفا وخمسين فارساً من مشهوري الفرنج وشجعانهم ، وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره ، وتجديد ما رث منه ، فأحكم الموضع الذي ملك البلد منه وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل ، وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله ، فعمل ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة وأرسل أتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل جماعة من الجصاصين لهم في قطع الصخر اليد الطولى ، فعملوا له هناك برجا وبدنة، وكذلك جميع الأمراء، ثم ان الحجارة قلَّت عند العمالين ، فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به العسكر، فكان يجمع عنده من العمالين في اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام .

ذكر عود الفرنج إلى الرملة

في العشرين من ذي الحجة عاد الفرنج إلى الرملة، وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل ، فلما أبعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة، فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ، ثم إن ملك إنكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميين ، صوروا لي مدينة القدس فإني ما رأيتها، فصوروها له ، فرأى الوادي يحيط بها ما عدا موضعاً يسيراً من جهة الشمال ، فسأل عن الوادي

وعن عمقه ، فأخبر أنه عميق وعر المسالك ، فقال : هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة، لأننا إن نزلنا في الجانب الذي يلي المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة، فيدخل إليهم منها الرجال ، الذخائر وما يحتاجون إليه ، وإن نحن افترقنا، فنزل بعضنا من جانب الوادي ، وبعضنا من الجانب الأخر جمع صل! الدين أصحابه وواقع إحدى الطائفتين ، ولم يكن للطائفة الأخرى إنجاد أصحابهم ، لأنهم إن فارقوا مكانهم خرج مَنْ بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه ، وإن تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم ، فإلى أن يتخلصوا من الوادي ويلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم ، هذا سوى ما يتعذر علينا من إيصال ما يحتاج إليه من العلوفات والأقوات ، فلما قال لهم ذلك علموا صدقه ، ورأوا قلة الميرة عندهم ، وما يجرى

للجالبين لهما من المسلمين ، فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة ، فعادوا خائبين خاسرين .

ذكر قتل قزل أرسلان

في شعبان من هذه السنة قتل قزل أرسلان واسمه عثمان بن أيلدكز، وقد ذكرنا أنه ملك البلد بعد وفاة أخيه البهلوان ملك أران وأذربيجان وهمذان وأصفهان والري وما بينهما ، وأطاعه صاحب فارس وخوزستان ، واستولى على السلطان طغرل ، فاعتقله في بعض القلاع ، ودانت له البلاد، وفي آخر أمره سار إلى أصفهان والفتن بها متصلة من لدن توفي البهلوان إلى ذلك الوقت ، فتعصب على الشافعية، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم ، وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة، وضرب النوب الخمس ، ثم إنه دخل ليلة قتل إِلى منزله لينام ، وتفرق أصحابه فدخل إليه من قتله على فراشه ، ولم يعرف قاتله ، فأخذ أصحابه صاحب بابه ظناً وتخميناً وكان كريماً حسن الأخلاق يحب العدل ويؤثره ويرجع إلى حلم وقلة عقوبة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قدم معزّ الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم على صلاح الدين في رمضان ، وكان سبب قدومه أن والده عز الدين قلج أرسلان فرق مملكته على أولاده ، وأعطى ولده هذا ملطية، وأعطى ولده قطب الدين ملكشاه سيواس ، فاستولى قطب الدين على أبيه ، وحجر عليه وأزال حكمه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه وسلمها إليه ، فخاف معز.الدين فسار إلى صلاح الدين ملتجئاً إليه

معتضداً به ، فأكرمه صلاح الدين وزوجه بابنة أخيه الملك العادل ، فامتنع قطب الدين من قصده ، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة وحدثني من أثق به قال : رأيت صلاح الدين وقد ركب ليودع هذا معز الدين فترجل له معز الدين وترجل صلاح الدين وودعه راجلًا، فلما أراد الركوب عضده هذا معز الدين وركب ، وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه بن عز الدين صاحب الموصل ، قال فعجبت من ذلك ، وقلت ما تبالي يا ابن أيوب أي موتة تموت يركبك ملك سلجوقي وابن أتابك زنكي .

وفيها توفي حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وعلم الدين سليمان بن جندر، وهو من أكابر أمراء صلاح الدين أيضاً . وفي رجب توفي الصفي بن القابض ، وكان متولي دمشق لصلاح الدين يحكم في جميع بلاده .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

ذكر عمارة الفرنج عسعقلان

في هذه السنة في المحرم رحل الفرنج نحو عسقلان ، وشرعوا في عمارتها، وكان صلاح الدين بالقدس ، فسار ملك إنكلتار جريدة من عسقلان إلى يزك المسلمين ، فواقعهم وجرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف بعضهم من بقض ، وفي مدة مقام صلاح الدين بالقدس ما برحت سراياه تقصد الفرنج ، فتارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع الميرة عنهم ومن جملتها سرية كان مقدمها فارس الدين ميمون القصري ، وهو من مقدمي المماليك الصلاحية خرج على قافلة كبيرة للفرنج فأخذها وغنم ما فيها .

ذكر قتل المركيس وملك الكندهري

في هذه السنة في ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس الفرنجي لعنه الله صاحب صور، وهو أكبر شياطين الفرنج ، وكان سبب قتله أن صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيلية، وهو سنان أن أرسل من يقتل ملك إنكلتار، وإن قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار، فلم يمكنهم قتل ملك إنكلتار، ولم يره سنان مصلحة لهم لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ لهم ، وشره في أخذ المال ، فعدل إلى قتل المركيس ، فأرسل رجلين في زي الرهبان واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان ، صاحب رملة، وكانا مع المركيس بصور، فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة ، فانسر بهما المركيس ووثق إليهما، فلما كان بعد التاريخ عمل الأسقف يصور دعوة المركيس فحضرها وأكل طعامه وشرب مدامه وخرج من عنده ، فوثب عليه الباطنيان المذكوران ، فجرحاه جراحاً

وثيقة، وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفي فيها، فاتفق أن المركيس حمل إليها ليشد جراحه ، فوثب عليه ذلك الباطني فقتله ، وقتل الباطنيان بعده ، ونسب الفرنج قتله الى

وضع من ملك إنكلتار لينفرد بملك الساحل الشامي ، فلما قتل ولي بعده مدينة صوركند من الفرنج من داخل البحر يقال له الكندهري ، وتزوج بالملكة في ليلته ، ودخل بها وهي حامل ، وليس الحمل عندهم مما يمنع النكاح ، وهذا الكندهري هو ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه ، وابن أخت ملك إنكلتار من أمه ، وملك هذا كندهري بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك إنكلتار، وعاش إلى سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فسقط من سطح فمات ، وكان عاقلاً كثير المداراة ، والاحتمال ، ولما رحل ملك إنكلتار إلى بلاده أرسل هذا كندهري إلى صلاح الدين يستعطفه ويستميله يطلب منه خلعة، وقال : أنت تعلم أن لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسهما منك محبة لك ، فأنفذ إليه خلعة سنية منها القباء والشربوش ، فلبسهما بعكا.

ذكر نهب بني عامر البصرة

في هذه السنة في صفر اجتمع بنو عامر في خلق كثير وأميرهم عميرة وقصدوا البصرة ، وكان الأمير بها اسمه محمد بن اسماعيل ينوب عن مقطعها الأمير طغرل مملوك الخليفة الناصر لدين الله ، فوصلوا إليها يوم السبت سادس صفر، فخرج إليهم الأمير محمد فيمن معه من الجند، فوقعت الحرب بينهم بدرب الميدان بجانب الخريبة، ودام القتال إلى آخر النهار ، فلما جاء الليل ثلم العرب في السور عدة ثلم ، ودخلوا البلد من الغد، فقاتلهم أهل البلد فقتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقين ، ونهبت العرب الخانات بالشاطىء وبعض محال البصرة، وعبر أهلها إلى شاطىء الملاحين ، وفارق

العرب البلد في يومهم ، وعاد أهله إليه ، وكان سبب سرعة العرب في مفارقة البلد أنهم بلغهم أن خفاجة والمنتفق قد قاربوهم ، فساروا إليهم وقاتلوهم أشد قتال ، فظفرت عامر وغنمت أموال خفاجة والمنتفق وعادوا إلى البصرة بكرة الاثنين ، وكان الأمير قد جمع من أهل البصرة والسواد جمعاً كثيراً، فلما عادت عامر قاتلهم أهل البصرة ومن اجتمع معهم ، فلم يقوموا للعرب وانهزموا ، ودخل العرب البصرة ونهبوها ، وفارق البصرة أهلها ونهبت أموالهم ، وجرت أمور عظيمة ونهبت القسامل وغيرها يومين ، وفارقها العرب ، وعاد أهلها إليها، وقد رأيت هذه القصة بعينها في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة والله أعلم .

ذكر ما كان من ملك إنكلتار

في تاسع جمادي الأولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ، ثم ساروا إلى البيت المقدس ، وصلاح الدين فيه فبلغوا بيت نوبة ، وكان سبب طمعهم أن صلاح الدين فرق عساكره الشرقية وغيرها لأجل الشتاء ويستريحوا وليحضر البلد عوضهم ، وسار بعضهم مع ولده الأفضل وأخيه العادل إلى البلاد الجزرية – لما نذكَره إن شاء الله تعالى ، وبقي من حلقته الخاص بعض العساكر المصرية، فظنوا أنهم ينالون غرضاً، فلما سمع صلاح الدين بقربهم منه فرق أبراج البلد على الأمراء، وسار الفرنج من بيت نوبة إلى قلونية سلخ الشهر، وهي فرسخين من القدس ، فصب المسلمون عليهم البلاء، وتابعوا إرسال السرايا قبل الفرنج منهم بما لا قبل لهم به ، وعلموا أنهم إذا نازلوا القدس كان الشر إليهم أسرع والتسلط عليهم أمكن ، فرجعوا القهقرى ، وركب المسلمون أكتافهم بالرماح ، والسهام ، ولما بعد الفرنج عن يافا سيّر صلاح الدين سرية من عسكره إليها فقاربوها وكمنوا عندها ، فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة ، فخرجوا عليهم ، فقتلوا منهم وأسروا وغنموا ، وكان ذلك آخر جمادى الأولى .

ذكر استيلاء الفرنج على عسكر للمسلمين وقفل

في تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج الخبر بوصول عسكر من مصر، ومعهم قفل كبير ومقدم العسكر فلك الدين سليمان أخو العادل لأمه ، ومعه عدة من الأمراء، فأسرى

الفرنج إليهم فواقعهم بنواحي الخليل ، فانهزم الجند، ولم يقتل منهم أحد من المشهورين إنما قتل من الغلمان والأصحاب ، وغنم الفرنج خيامهم وآلاتهم ، وأما القفل فإنه أخذ بعضه ، وصعد من نجاجبل الخليل ، فلم يقدم الفرنج على اتباعهم ، ولو اتبعوهم نصف فرسخ لأتوا عليهم ، وتفرق من نجا من القفل وتقطعوا، ولقوا شدة إلى أن اجتمعوا . حكى لي بعض أصحابنا، وكنا قد سيرنا معه شيئاً للتجارة إلى مصر، وكان قد خرج في هذه القفل قال : لمّا وقع الفرنج علينا كنا قد رفعنا أحمالنا للسير، فحملوا علينا وأوقعوا بنا ، فضربت جمالي وصعدت الجبل ، ومعي عدة أجمال لغيري ، فلحقنا قوم من الفرنج ، فأخذوا الأجمال التي في صحبتي ، وكنت بين أيديهم بمقدار رمية

سهم ، فلم يصلوا إلي ، فنجوت بما معي وسرت لا أدري أين أقصد وإذ قد لاح لي بناء كبير على جبل ، فسألت عنه فقيل لي هذا الكرك ، فوصلت إليه ثم عدت منه إلى القدس سالماً ، وسار هذا الرجل من القدس سالماً ، فلما بلغ بزاعة عند حلب أخذه الحرامية ، فنجا من العطب وهلك عند ظنه السلامة .

ذكر سير الأفضل والعادل إلى بلاد الجزيرة

قد تقدَّم ذكر موت تقي الدين عمر بن صلاح الدين واستيلاء ولده ناصر الدين محمد علىِ بلاد الجزيرة، فلما استولى عليها أرسل إلى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه مضافاَ إلى ما كان لأبيه بالشام ، فلم ير صلاح الدين أن مثل تلك البلاد تسلم إلى صبي ، فما أجابه إلى ذلك ، فحدث نفسه بالامتناع على صلاح الدين لاشتغاله بالفرنج ، فطلب الأفضل علي بن صلاح الدين من أبيه أن يقطعه ما كان لتقي الدين ، وينزل عن دمشق ، فأجابه إلى ذلك وأمره بالمسير إليها، فسار إلى حلب في جماعة من العسكر، وكتب صلاح الدين إلى أصحاب البلاد الشرقية مثل صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب ديار بكر وغيرها يأمرهم بإنفاذ العساكر إلى ولده الأفضل ، فلما رأى ولد تقي الدين ذلك علم أنه لا قوة له بهم ، فراسل الملك العادل ، عم أبيه يسأله إصلاح حاله مع صلاح الدين ، فأنهى ذلك إلى صلاح الدين ، وأصلح حاله وقرر قاعدته بأن يقرر له ما كان لأبيه بالشام ، وتؤخذ منه البلاد الجزرية، وهي حران الرها وسميساط وميافارقين وحاني العادل ، وسيره إلى ابن تقي

الدين ليتسلم منه البلاد ويسيره إلى صلاح الدين ويعيد الملك الأفضل أين أدركه ، فسار العادل فلحق الأفضل بحلب ، فأعاده إلى أبيه ، وعبر العادل الفرات وتسلم البلاد من ابن تقي الدين ، وجعل نوابه فيها واستصحب ابن تقي الدين معه وعاد إلى صلاح الدين بالعساكر، وكان عوده في جمادى الآخرة من هذه السنة .

ذكر عود الفرنج إلى عكا

لما عاد الملك الأفضل فيمن معه ، وعاد الملك العادل وابن تقي الدين فيمن معهما من عساكرهما ، ولحقتهم العساكر الشرقية ، عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار وغير ذلك من البلاد ، واجتمعت العساكر بدمشق أيقن الفرنج أنهم لا طاقة لهم

بها إذا فارقوا البحر، فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على قصد بيروت ومحاصرتها، فأمر صلاح الدين ولده الأفضل أن يسير إليها في عسكره والعساكر الشرقية جميعها معارضاً للفرنج في مسيرتهم نحوها ، فسار إلى مرج العيون ، واجتمعت العساكر معه ، فأقام هنالك ينتظر مسير الفرنج ، فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكّا ولم يفارقوها.

ذكر ملك صلاح الدين يافا

لما رحل الفرنج نحو عكّا كان قد اجتمع عند صلاح الدين عسكر حلب وغيرها، فسار إلى مدينة يافا، وكانت بيد الفرنج ، فنازلها وقاتل من بها منهم ، وملكها في العشرين من رجب بالسيف عنوة ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وأسروا كثيراً، وكان بها أكثر ما أخذوه من عسكر مصر والقفل الذي كان معهم ، – وقد ذكر ذلك – وكان جماعة من المماليك الصلاحية قد وقبوا على أبواب المدينة، وكل من خرجِ من الجند ومعه شيء من الغنيمة أخذوه منه ، فإن امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهراَ ، ثم زحفت العساكر الى القلعة ، فقاتلوا عليها آخر النهار وكادوا يأخذونها ، فطلب من بالقلعة الأمان على أنفسهم ، وخرج البطرك الكبير الذي لهم ومعه عدة من أكابر الفرنج في ذلك ، وترددوا ، وكان قصدهم منع المسلمين عن القتال ، فأدركهم الليل وواعدوا المسلمين أن ينزلوا بكرة غد ويسلموا القلعة ، فلما أصبح الناس طالبهم صلاح الدين بالنزول عن الحصن فامتنعوا ، واذ قد وصلهم نجدة من عكا وأدركهم ملك انكلتار، فأخرج من بيافا من المسلمين ، وأتاه المدد من عكا وبرزوا إلى ظاهر المدينة ،

واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدَّم إليه أحد، فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل أكل ، فأمر صلاح الدين عسكره بالحملة عليهم وبالجد في قتالهم ، فتقدم إليه بعض أمرائه يعرف بالجناح ، وهو أخو المشطوب بن علي ابن أحمد الهكّارى، فقال له : يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين اخذوا امس الغنيمة وضربوا الناس بالحماقات يتقدمون فيقاتلون ، إذا كان القتال فنحن وإذا كانت الغنيمة فلهم ، فغضب صلاح الدين من كلامه ، وعاد عن الفرنج ، وكان – رحمه الله – حليماً كريماً لمقدرة، ونزل في خيامه ، وأقام حتى اجتمعت العساكر، وجاء إليه ابنه الأفضل وأخوه العادل وعساكر الشرق ، فدخل بهم إلى الرملة لينظر ما يكون منه ومن الفرنج ، فلزم الفرنج يافا ولم يبرحوا منها.

في العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية اشهر، أولها هذا التاريخ وافق أول أيلول ، وسبب الصلح أن ملك إنلكتار لما رأى اجتماع العساكر، وانه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه ،قد طالت غيبته عن بلاده ، وأرسل صلاح الدين في الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولا، فلم يجبه صلاح الدين إلى ما طلب ظنا منه أنه يفعل ذلك خديعة ومكراً ، وأرسل يطلب منه المصاف والحرب ، فأعاد الفرنجي رسله مرة بعد مرّة، وترك تتمة عمارة عسقلان وعن غزة والداروم والرملة ، وأرسل إلى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة ، فأشار هو وجماعة الأمراء بالإجابة إلى الصلح ، وعرفوه ما عند العسكر من الضجر والملل وما قد هلك من أسلحتهم ودوابهم ونفد من نفقاتهم ، وقالوا : إن هذا الفرنجي إنما طلب الصلح ليركب البحر ويعود إلى بلاده ، فإن تأخّرت إجابته إلى ان يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر نحتاج نبقى ههنا سنة أخرى، وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين ، وأكثروا القول له في هذا المعنى ، فأجاب حينئذ إلى الصلح ، فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا على هذه القاعدة، وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين باليان بن بارزان الذي كان صاحب الرملة ونابلس ، فلمّا حلف صلاح الدين قال له : ما عمل أحد في الإسلام ما عملت ، ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة، فإننا احصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة،

فكانوا ستمائة ألف رجل ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد، بعضهم قتلتهم أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق ، ولما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج في زيارة بيت المقدس ، فزاروه وتفرقوا ، وعادت كل طائفة إلى بلادها ، وأقام بالساحل الشامي ملكا على الفرنج والبلاد التي بأيديهم الكندهري ، وكان خير الطبع قليل الشر رقيقاً بالمسلمين محباً لهم ، وتزوج بالملكة التي كانت تملك بلاد الفرنج قبل أن يملكها صلاح الدين – كما ذكرناه –، وأما صلاح الدين فإنه بعد تمام الهدنة سار إلى البيت المقدس ، وأمر بإحكام سوره ، وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين ، ووقف عليها الوقوف وصام رمضان بالقدس ، وعزم على الحجِ والإحرام منه فلم يمكنه ذلك ، فسار عنه خامس شوال نحو دمشق واستناب بالقدس أميرا اسمه جورديك ، وهو من المماليك النورية، ولما سار عنه جعل طريقه على الثغور

الإسلامية كنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت ، وتعهد هذه البلاد وأمر بإحكامها ، فلما كان في بيروت أتاه بيمند صاحب أنطاكية ، وأعمالها، واجتمع به وخدمه ، فخلع علب ، صلاح الدين وعاد إلى بلده ، فلما عاد رحل صلاح الدين الى دمشق ، فدخلها في الخامس والعشرين من شوال ، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً ، وفرح الناس به فرحا عظيما لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الإسلام .

ذكر وفاة قلج أرسلان

في هذه السنة منتصف شعبان ، توفي الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلش بن سلجوق السلجوقي بمدينة قونيّة، وكان له من البلاد قونية وأعف لها وأقصرا وسيواس وملطيّة وغير ذلك من البلاد ، وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة ، وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة الى بلاد الروم ، فلما كبر فرق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين ، وكان قلج أرسلان قد استناب في مدينة ملكه رجلًا يعرف باختيار الدين حسن ، فلما غلب قطب الدين على الأمر قتل حسناً، ثم أخذ والده وسار به إلى قيسارية ليأخذ من أخيه الذي سلمها إليه أبوه فحصرها مدة فوجد والده قلج ارسلان فرصة فهرب ودخل وحده ، فلما علم قطب الدين ذلك عاد إلى قونية ،أقصر فملكها ، ولم يزل قلج أرسلان يتحول من ولد إِلى ولد، وكل منهم يتبرم به حتى مضى إلى ولده غياب الدين كيخسرو صاحب مدينة برغلوا، فلما رآه فرح به وخدمه وجمع العساكر، وسار هو معه إلى

قونية فملكها وسار إلى أقصرا ومعه والده قلج أرسلان فحصرها، فمرض أبوه ، فعاد به إلى قونية فتوفّي بها ودفن هناك ، وبقي ولده غياث الدين في قونية مالكاً لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان –على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وقد حدثني بقض من أثق إليه من أهل العلم مما يحكيه ، وكان قد وصل تلك البلاد بغير هذا – ونحن نذكره – قال : إن قلج أرسلان قسّم بلاده بين أولاده في حياته ، فسلم دوقاط إلى ابنه ركن الدين سليمان ، وسلم قونية إلى ولده كيخسرو غياث الدين ، وسلم أنقرة وهي التي تسمى أنكوريّة إلى ولده محي الدين ، وسلم ملطية إلى ولده معزّ الدين قيصر شاه ، وسلم ابلستين إلى ولده مغيث الدين ، وسلم قيسارية إلى وندە نور الدين محمود، وسلم سيواس واقصرا إِلى ولده قطب الدين ، وسلم تكسار إلى ولد

آخر، وسلم أماسيا إلى ولد أخيه ، هذه أمهات البلاد، وينضاف إلى كل بلد من هذه ما يجاورها من البلاد الصغار التي ليست مثل هذه ، ثم إنه ندم على ذلك وأراد أن يجمع الجميع لولده الأكبر قطب الدين وخطب له ابنة صلاح الدين يوسف صاحب مصر والشام ليقوى به ، فلما سمع باقي أولاده بذلك امتنعوا عليه وخرجوا عن طاعته وزال حكمه عنهم ، فسار يتردد بينهم على سبيل الزيارة فيقيم عند كل واحد منهم مدّة وينتقل إلى الآخر، ثم إنه مضى إلى ولده كيخسرو صاحب قونية على عادته ، فخرج إليه ولقيه وقبل الأرض بين يديه وسلم قونية إليه وتصرف عن أمره فقال لكيخسرو: أريد أسير إلى ولدي الملعون محمود – وهو صاحب قيسارية – وتجيء أنت معي لآخذها منه ، فتجهز وسار معه وحصر محمودا بقيسارية فمرض قلج أرسلان وتوفّي عليها، فعاد كيخسرو وبقي كل واحد من الاولاد على البلد الذي بيده .

وكان قطب الدين صاحب أقصرا وسيواس إذا أراد أن يسير من إحدى المدينتين إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية وبها أخوه نور الدين محمود، وليست على طريته إنما كان يقصدها ليظهر المودة لأخيه والمحبة له ، وفي نفسه الغدر، فكان أخوه محمود يقصده ويجتمع به ، ففي بعض المرات نزل بظاهر البلد على عادته وحضر اخوه محمود عنده غير محتاط ، فقتله قطب الدين وألقى رأسه الى اصحابه وأراد أخذ البلد، فامتنع من به من اصحاب أخيه عليه ، ثم انهم سلموه اليه على قاعدة استمرَّت بينهم ، وكان عند محمود أمير كبير وكان يحذره من أخيه قطب الدين ويخوفه ، فلم

يصغ إليه ، وكان جواداً كثير الخير والتقدم في الدولة عند نور الدين ، فلما قتل قطب الدين أخاه قتل حسناً معه وألقاه على الطريق ! فجاء كلب يأكل من لحمه ، فثار الناس وقالوا :لا سمعاً ولا طاعة هذا رجل مسلم وله ههنا مدرسة وتربة وصدقات دارة وأفعال حسنة لا نتركه تأكله الكلاب ، فأمر به فدفن في مدرسته ، وبقي أولاد قلج أرسلان على حالهم ، ثم إن قطب الدين مرض ومات ، فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس ، وهي تجاوره فملكها ، ثم سار منها إلى قيسارية واقصرا ، ثم بقي مديدة ، وسار إلى قونية وبها أخوه غياث الدين فحصره بها وملكها، ففارقها غياث الدين إلى الشام ، ثم إلى بلد الروم ، وكان من أمره – ما نذكره إن شاء الله تعالى –، ثم سار بعد ذلك إلى ركن الدين إلى فكسار وأماسيا، فملكها، وسار إلى ملطية سنة سبع وتسعين وخمسمائة فملكها،

وفارقها أخوه معز الدين إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وكان هذا معزّ الدين تزوج ابنة للعادل ، فأقام عنده واجتمع لركن الدين ملك جميع الأخوة ما عدا أنقرة ، فإنها منيعة لا يوصل اليها، فجعل عليها عسكراً يحصرها صيفاً وشتاء ثلاث سنين ، فتسلمها سنة إحدى وستمائة، ووضع على أخيه الذي كان بها من يقتله إذا فارقها، فلما سار عنها قتل وتوفّي ركن الدين في تلك الايام ، ولم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمه وإنما أوردنا هذه الحادثة ههنا لنتبع بعضها بعضا، ولأني لم أعلم تواريخ كل حادثة منها لأثبته فيه .

ذكر ملك شهاب الدين أجمير وغيرها من الهند

قد ذكرنا سنة ثلاث وثمانين غزوة شهاب الدين الغوري إلى بلد الهند وانهزامه ،وبقي إلى الآن وفي نفسه الحقد العظيم على الجند الغورية الذين انهزموا وما ألزمهم من الهوان ، فلما كانت هذه السنة خرج من غزنة، وقد جمع عساكره ، وسار فيها يطلب غزوة الهندي الذي هزمه تلك النوبة، فلما وصل إلى يرشاوور تقدم إليه شيخ من الغورية كان يدل عليه ، فقال له : قد قربنا من العدو وما يعلم أحد أين يمضي ولا من يقصد ولا نرد على الأمراء سلاما وهذا لا يجوز فعله ،فقال له السلطان : أعلم أنني منذ هزمني هذا الكافر ما نمت مع زوجتي ولا غيرت ثياب البياض عني ، وأنا سائر إلى عدوي ومعتمد على الله تعالى لا على الغورية ولا على غيرهم ، فإن نصرني الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه وإن انهزمنا فلا تطلبوني فما انهزمت ولو هلكت تحت حوافر الخيل

، فقال له الشيخ : سوف ترى بني عمك من الغورية ما يفعلون فينبغي أن تكلمهم وترد سلامهم ففعل ذلك ، وبقي أمراء الغورية يتضرعون ويقولون سوف ترى ما نفعل .

وسار إلى أن وصل إلى موضع المصاف الأول وجازه مسيرة أربعة أيام وأخذ عدة مواضع من بلاد العدو، فلما سمع الهندي تجهَز وجمع عساكره وسار يطلب المسلمين ، فلما بقي بين الطائفتين مرحلة عاد شهاب الدين وراء ، والكافر في أعقابه أربعة منازل ، فأرسل الكافر إليه يقول له اعطني يدك أنك تصافقني في باب غزنة حتى أجيء وراءك ، وإلا فنحن مثقلون ومثلك لا يدخل البلاد شبيه اللصوص ، ثم يخرج هارباً ما هذا فعل السلاطين ، فأعاد الجواب إنني لا اقدر على حربك ، وتم على حاله عائداً إلى أن بقي بينه وبين بلاد الإسلام ثلاثة أيام ، والكافر في أثره يتبعه حتى لحقه قريباً من مرندة،

فجرد شهاب الدين من عسكره سبعين ألفاً وقال : أريد هذه الليلة تدورون حتى تكونوا وراء عسكر العدو، وعند صلاة الصبح تأتون أنتم من تلك الناحية وأنا من هذه الناحية ففعلوا ذاك ، وطلع الفجر، ومن عادة الهنود انهم لا يبرحون من مضاجعهم إلى أن تطلع الشمس ، فلقا اصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كل جانب وضربت الكؤسات ، فلم يلتفت ملك الهند إلى ذلك ، وقال : من يقدم علي أنا هذا، والقتل قد أكَثر في الهنود، والنصر قد طهر للمسلمين ، فلما رأى ملك الهند ذلك احضر فرساً له سابقاً وركبه ليهرب ، فقال له أعيان أصحابه : إنك حلفت لنا أنك لا تخلينا وتهرب ، فنزل عن الفرش وركب الفيل ووقف موضعه والقتال شديد والقتل قد كثر في أصحابه ، فانتهى المسلمون إِليه وأخذوه أسيراً ، وحينئذ عظم القتل والأسر في الهنود ولم ينج منهم إلا القليل ، وأحضر الهندي بين يدي شهاب الدين ، فلم يخدمه فأخذ بعض الحجاب بلحيته وجذبه إلى الأرض حتى اصابها جبينه وأقعده بين يدي شهاب الدين ، فقال له شهاب الدين : لو استأسرتني ما كنت تفعل بي ؟ فقال الكافر: قد استعملت لك قيداً من ذهب أقيدك به ، فقال شهاب الدين بل نحن ما نجعل لك من القدر ما نقيدك ، وغنم المسلمون من الهنود أموالا كثيرة وأمتعة عظيمة، وفي جملة ذلك أربعة عشر فيلا من جملتها الفيل الذي جرح شهاب الدين في تلك الوقعة، وقال ملك الهند لشهاب الدين : إن كنت طالبا بلاد فما بقي فيها من يحفظها وإن كنت طالب أموال فعندي أموال تحمل أجمالك ، فسار شهاب الدين وهو معه إلى الحصن الذي له

يعول عليه ، وهو أجمير فأخذه وأخذ جميع البلاد التي تقاربه ، وأقطع جميع البلاد لمملوكه قطب الدين أيبك وعاد إلى غزنة وقتل ملك الهند .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض على أمير الحاج طاشتكين ببغداد، وكان نعم الأمير عادلاً في الحاج رفيقا بهم محبّاً لهم له اوراد كثيرة من صلوات وصيام ،وكان كثير الصدقة لا جرم وقفت اعماله بين يديه فخلص من السجن –على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها خرج السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل من الحبس بعد موت قزل أرسلان ابن أيلدكز،والتقى هو وقتغ أينانج بن البهلوان بن أيلدكز، فانهزم أينانج إلى الري على ما نذكره إنشاء الله تعالى –سنة تسعين وخمسمائة .

وفيها في رجب توفّي الأمير السيد علي بن المرتضى العلوي الحنفي مدرس جامع السلطان ببغداد. وفي شعبان منها توفّي أبو علي الحسن بن هبة الله بن البوقي الفقيه الشافعي الواسطي ، وكان عالماً بالمذهب انتفع به الناس.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة
ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته

في هذه السنة في صفر توفّي صلاح الدين يوسف برت أيوب بن شاذي صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها بدمشق ومولده بتكريت ، وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها ، وملكهم مصر سنة أربع وستين وخمسمائة، وكان سبب مرضه أنه خرج يلتقي الحاج ، فعاد ومرض من يومه مرضا حادا بقي به ثمانية أيام ، وتوفي – رحمه الله – وكان قبل مرضه قد أحضر ولده الأفضل علياً وأخاه الملك العادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل ، وقال : قد تفرغنا من الفرنج وليس لنا في هذه البلاد شاغل ، فأي جهة نقصد؟ فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلمها إليه ، وأشار ولده الأفضل بقصد بلد الروم التي بيد أولاد قلج أرسلان ، وقال : هي اكثر بلاداً وعسكراً ومالاً وأسرع مأخذاً ، وهي أيضاً طريق الفرنج إذا خرجوا على البر، فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيه ، فقال : كلاكما مقصر ناقص الهمة بل أقصد أنا بلد الروم وقال لأخيه : تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العسكر وتقصد خلاط ، فإذا فرغتَ أنا من بلد الروم جئت إليكم وندخل منها أذربيجان ، ونتصل ببلاد العجم ، فما فيها من يمنع عنها ثم أذن لأخيه العادل في المضي الى الكرك ، وكان له وقال له تجهّز واحضر لتسير، فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين وتوفي قبل عوده – وكان رحمه اللّه – كريماً حليماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه .

وبلغني أنه كان جالساً وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموز، فأخطأته ، ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته ، ووقعت بالقرب منه ، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها، وطلب مرة الماء فلم يحضر، وعاود الطلب في

مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر، فقال : يا اصحابنا والله قد قتلني العطش ، فأحضر الماء فشربه ، ولم ينكر التواني في إحضاره ، وكان مرّة قد مرض مرضاً شديداً أرجف عليه بالموت ، فلما برىء منه وأدخل الحمام كان الماء حاراً، فطلب ماء بارداً فأحضره الذي يخدمه فسقط من الماء شيء على الأرض ، فناله منه شيء فتألم لضعفه ، ثم طلب البارد أيضاً فاحضر، فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض ، فوقع الماء جميعه عليه ، فكاد يهلك ، فلم يزد على أن قال للغلام : إن كنت تريد قتلي فعرفني ، فاعتذر إِليه فسكت عنه .

وأما كرمه فإنه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرجه ، ويكفي دليلا على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري وأربعين درهماً ناصرية ، وبلغني أنه اخرج في مدّة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر الف دابة من فرس وبغل سوى الجمال ، وأما العين والثياب والسلاح ، فإنه لا يدخل تحت الحصر، ولما انقرضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الِإحصاء، ففرقه جميعه .

وأما تواضعه فإنه كان ظاهراً لم يتكبر على أحد من أصحابه ، وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك ، وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية، ويعمل لهم السماعِ ، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له ، فلا يقعد حتى يفرغ الفقير، ولم يلبس شيئاَ مما ينكره الشرع ، وكان عنده علم ومعرفة وسمع الحديث واسمعه ، وبالجملة فكان نادراً في عسكره كثير

المحاسن والأفعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار، وفتوحه تدل على ذلك ، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً .

ذكر حال أهله وأولاده بعده

لما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل نور الدين عليّ ، وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة في حياته ، فلما مات ملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم ، وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بها ، وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وإعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك ، وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمه ،

فأطاعه وصار معه ، وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه ، فأطاع الملك الأفضل ، وكان الملك العادل بالكرك قد سار اليه كما ذكرنا فامتنع فيه ولم يحضر عند أحد أولاد أخيه فأرسل إليه الملك الأفضل يستدعيه ليحضر عنده فوعده ولم يفعل ، فأعاد مراسلته ، وخوفه من الملك العزيز صاحب مصر، ومن أتابك عز الدين صاحب الموصل ، فإنه كان قد سار عنها إلى بلاد العادل الجزرية – على ما نذكره – ويقول له إن حضرت جهزت العساكر وسرت إلى بلادك حفظتها، وان اقمت قصدك أخي الملك العزيز لما بينكما من العداوة، وإذا ملك عز الدين بلادك ، ، فليس له دون الشام مانع ، وقال لرسوله : إن حضر معك وإلا فقل له قد أمرني إن سرت إليه بدمشق عدت معك ، لان لم تفعل أسير إلى الملك العزيز احالفه على ما يختار، فلما حضر الرسول عنده وعده بالمجيء ، فلما رأى أن ليس معه منه شيء غير الوعد أبلغه ما قيل له في معنى موافقة العزيز، فحينئذ سار الى دمشق وجهز الأفضل معه عسكر من عنده ، وأرسل إلى صاحب حمص وصاحب حماة وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب ، يحثّهم على إنفاذ العساكر مع العادل إلى البلد الجزرية ليمنعها من صاحب الموصل ، ويخوفهم إن هم لم يفعلوا ، ومما قال لأخيه الظاهر: قد عرفت صحبة أهل الشام لبيت أتابك فوالله لئن ملك عز الدين حرّان ليفركن أهل حلب عليك ولتخرجن منها وأتَ لا تعقل ، وكذلك يفعل في أهل دمشق ، فاتفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه ، فجهزوا عساكرهم وسيروها إلى

العادل ، وقد عبر الفرات فعسكر عساكرهم بنواحي الرها بمرج الرحان ، وسنذكر ما كان منه إن شاء الله تعالى .

ذكر مسير أتابك عز الدين إلى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه

لما بلغ أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة صلاح الدين جمع أهل الرأي من أصحابه ، وفيهم مجاهد الدين قايماز كبير دولته والمقدم على كل من فيها، وهو نائبه فيهم ، واستشارهم فيما يفعل ، فسكتوا فقال له بعضهم ، وهو أخي مجد الدين ابو السعادات المبارك : أنا أرى أنك تخرج مسرعا جريدة فيمن خف من أصحابك وحلقتك الخاص ، وتنقدم إلى الباقين باللحاق بك ، وتعطي من هو محتاج إلى شيء ما يتجهز به ويلحق بك إلى نصيبين ، وتكاتب أصحاب الأطراف ، مثل مظفر

الدين بن زين الدين صاحب إربل ، وسنجرشاه ابن اخيك صاحب جزيرة ابن عمر، وأخاك عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين تعرفهم أنك قد سرت وتطلب منهم المساعدة وتبذل لهم اليمين على ما يلتمسونه ، فمتى رأوك قد سرت خافوك ، وإن أجابك اخوك صاحب سنجار ونصيبين الى الموافقة ، وإلا بدأت بنصيبين أخذتها وتركت فيها من يحفظها، ثم سرت نحو الخابور، وهو له أيضاً فأقطعه وتركت عسكره مقابل أخيك يمنعه من الحركة إن أرادها أو قصدت الرقة ، فلا تمنع نفسها وتأتي حرّان والرها ، فليس فيهما من يحفظهما لا صاحب ولا عسكر ولا ذخيرة، فإن العادل أخذهما من ابن تقي الدين ولم يقم فيهما ليصلح حالهما، وكان القوم يتكلمون على قوتهم ، فلم يظنُّوا هذا الحادث ، فإذا فرغت من ذلك الطرف عدت إلى من امتنع من طاعتك فقاتلته ، وليس وراءك ما تخاف عليه ، فإنَّ بلدك عظيم لا يبالي بكل من وراءك ، فقال مجاهد الدين : المصلحة أننا نكاتب اصحاب الأطراف ونأخذ رأيهم في الحركة ونستميلهم ، فقال له أخي : إن أشاروا بترك الحركة تقبلون منهم ؟ قال :لا ، فإنهم لا يشيرون إلا بتركها لأنهم لا يريدون أن يقوى هذا السلطان خوفاً منه ، وكأني بهم يغالطونكم مهما كانت البلاد الجزرية فارغة من صاحب وعسكر، فإذا جاء إليها من يحفظها جاهروكم بالعداوة، ولم يمكنه أكثر من هذا خوفا من مجاهد الدين حيث رأى ميله إلى ما تكلم به ، فانفصلوا على أن يكاتبوا أصحاب الأطراف ، فكاتبوهم ، فكل أشار بترك الحركة الى ان ينظر ما يكون من أولاد صلاح الدين وعمهم فتثبط. . ثم إن مجاهد الدين كرر

المراسلات إلى عماد الدين صاحب سنجار يعده ويستميله ، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم كتاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق ، وقد سار عن دمشق إلى بلاده يذكر فيه موت أخيه ، وأن البلاد قد استقرّت لولده الملك الأفضل ، والناس متفقون على طاعته ، وأنه هو المدبّر لدولة الأفضل ، وقد سيّره في عسكر جمّ كثير العدد لقصد ماردين لما بلغه أن صاحبها تعرض إلى بعض القرى التي له ، وذكر من هذا النحو شيئاً. كثيراً فظنوه حقاً، وأن قوله لا ريب فيه ففتروا عن الحركة وذلك الرأي ، فسيروا الجواسيس فأتتهم الأخبار بأنه في ظاهر حرّان من نحو مائتي خيمة لا غير، فعادوا تحركوا فإلى أن تقررت القواعد بينهم وبين صاحب سنجار، وأقبلت العساكر الشامية التي سيرها الأفضل وغيره إلى العادل ، فامتنع بها ، وسار أتابك عز الدين عن الموصل إلى نصيبين ، واجتمع هو وأخوه عماد الدين بها ، وساروا على سنجار نحو الرها ، وكان العادل قد عسكر قريبا منها بمرج

الريحان فخافهم خوفاً عظيماً، فلما وصل أتابك عز الدين إلى تل مَوْزَن (1) مرض بالإِسهال ، فأقام عدة أيام فضعفت منه الحركة وكثر مجيء الدم منه ، فخاف الهلاك ، فترك العساكر مع أخيه عماد الدين ، وعاد جريدة في مائتي فارس ومعه مجاهد الدين وأخي مجد الدين ، فلما وصل إنى دُنَيْسِر(2) استولى عليه الضعف فأحضر أخي وكتب وصية ، ثم سار فدخل الموصل وهو مريض أول رجب .

ذكر وفاة أتابك عز الدين وشيء من سيرته

في هذه السنة توفي أتابك مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل ، وقد ذكرنا عوده إليها مريضا، فبقي في مرضه إلى التاسع والعشرين من شعبان ، فتوفي رحمه اللّه ودفن بالمدرسة التي أنشأها مقابل دار المملكة ، وكان قد بقي ما يزيد على عشرة أيام لا يتكلم إلا بالشهادتين وتلاوة القرآن ، وإذا تكلم بغيرها استغفر الله ، ثم عاد إلى ما كان عليه ، فرزق خاتمة خير رضي الله عنه ، وكان – رحمه الله – خيّر الطبع كثير الخير والإِحسان لا سيما إلى شيوخ قد خدموا أباه ، فإنه كان يتعهدهم بالبر والإحسان والصلة والإكرام ويرجع إلى قولهم ، ويزور الصالحين ويقر بهم ويشفعهم ، وكان حليماً قليل المعاقبة كثير الحياء لم يكلم جليساً له إلا وهو مطرق، وما قال في شيء يُسأله : لا، حياء وكرم طبع ، وكان قد حج وليس بمكة–حرسها الله –خرقة التصوف ، وكان يلبس تلك الخرقة كل ليلة ويخرج إلى مسجد قد بناه في داره ويصلي فيه نحو ثلث الليل ، وكان رقيق القلب "شفيقاً على الرعية .

بلغني عنه أنه قال بقض الأيام : إنني سهرت الليلة كثيراً ، وسبب ذلك أني سمعت صوت نائحة، فظننت أن ولد فلان قد مات ، وكان قد سمع أنه مريض ، قال : فضاق صدري وقمت من فراشي أدور في السطح ، فلما طال علي الأمر أرسلت خادما إلى الجاندارية، فأرسل منهم واحداً يستعلم الخبر، فعاد وذكر إنساناً لا أعرفه ، فسكن بعض ما عندي فنمت ولم يكن الرجل الذي ظن أن ابنه مات من اصحابه إنما كان من رعيته كان ينبغي أن تتأخر وفاته ، وإنما قدمناها لتتبع أخبارها بعضها بعضاً.

(1) تلّ موزن : وهر بلد قديم بين رأس عين وسروج ، وبينه وبين رأس عين عشرة أميال.

(2)دنيسر. بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين.

ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط

في هذه السنة أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط ، وكان بين قتله وموت صلاح الدين شهران ، فإنه أسرف في إظهار الشماتة بموت صلاح الدين ، فلم يمهله الله تعالى، ولما بلغه موت صلاح الدين فرح فرحاً كثيراً وعمل تختا جلس عليه ، ولقب نفسه بالسلطان المعظم صلاح الدين ، وكان لقبه سيف الدين فغيره وسمى نفسه عبد العزيز، وطهر منه اختلال وتخليط وتجهز ليقصد ميافارقين يحصرها فأدركته منيته ، وكان سبب قتله أن هزارديناري ، وهو أيضا من مماليك شاه أرمن من ظهير الدين كان قد قوي وكثر جمعه وتزوّج ابنة بكتمر، فطمع في الملك فوضع عليه من قتله ، فلما قتل ملك بعده هزارد دیناري بلاد خلاط وأعمالها ، وكان بكتمر ديّناً خيراً صالحاً كثير الخير والصلاح والصدقة محباً لأهل الدين والصوفية كثير الِإحسان اليهم قريباً منهم ومن سائر رعيته محبوباً إليهم عادلا فيهم ، وكان جواداً شجاعاً عادلاً في رعيته حسن السيرة فيهم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة شتى شهاب الدين ملك غزنة في برشاوور، وجهز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة، فأدخله بلاد الهند يغنم ويسبي ويفتح من البلاد ما يمكنه فدخلها وعاد وخرج هو وعساكره سالماً قد ملؤوا أيديهم من الغنائم .

وفيها في رمضان توفي سلطان شاه صاحب مرو وغيرها من خراسان وملك اخوه علاء الدين تكش بلاده وسنذكره سنة تسعين إن شاء اللّه .

وفيها أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد .

ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها .

وفيها في ربيع الأول فرغ من عمارة الرباط الذي أمر بإنشائه الخليفة أيضاً بالحريم الظاهري غربي بغداد على دجلة ، وهو من أحسن الربط ، ونقل اليه كتباً كثيرة من أحسن الكتب .

وفيها ملك الخليفة قلعة من بلاد خوزستان ، وسبب ذلك أن صاحبها سوسيان بن شملة جعل فيها دردارا، فأساء السيرة مع جندها، فغدر به بعضهم فقتله ونادوا بشعار الخليفة فأرسل إليها وملكها .

وفيها انقضّ كوكبان عظيمان ، وسمع صوت هدّة عظيمة، وذلك بعد طلوع الفجر وغلب ضوءهما القمر وضوء النهار.

وفيها مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم أمير مكة وما زالت مكة تكون له تارة ولأخيه مكثر تارة إلى أن ممات .

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة

ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندي

كان شهاب الدين الغوري ملك غزنة قد جهّز مملوكه قطب الدين وسيره إلى بلد الهند للغزاة فدخلها فقتل فيها وسبى وغنم وعاد، فلمّا سمع به ملك بنارس ، وهو اكبر ملك في الهند، ولايته من حدّ الصين إلى بلاد ملاوا طولاً، ومن البحر الى مسيرة عشرة أيام من لهاوور عرضاً، وهو ملك عظيم ، فعندها جمع جيوشه وحشرها وسار يطلب بلاد الِإسلام ، ودخلت سنة تسعين ، فسار شهاب الدين الغوري من غزنة بعساكره نحوه ، فالتقى العسكران على ماخون ، وهو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل ، وكان مع الهندي سبعمائة فيل ومن العسكر على ما قيل ألف ألف رجل ، ومن جملة عسكره عدّة أمراء مسلمين – كانوا في تلك البلاد أب عن جد من أيّام السلطان محمود بن سبكتكين – يلازمون شريعة الِإسلام ويواظبون على الصلوات وأفعال الخير، فلما التقى المسلمون والهنود اقتتلوا فصبر الكفار لكثرتهم وصبر المسلمون لشجاعتهم ، فانهزم الكفار ونصر المسلمون ، وكثر القتل في الهنود حتى امتلأت الأرض وجافت ، وكانوا لا يأخذون إلا الصبيان والجواري ، وأما الرجال فيقتلون ، وأخذ منهم تسعين فيلا، وباقي الفيلة قتل بعضها وانهزم بعضها، وقتل ملك الهند ولم يعرفه أحد إلا أنه كانت أسنانه قد ضعفت أصولها فأمسكوها بشريط الذهب فلذلك عرفوه ، فلما انهزم الهنود دخل شهاب الدين بلاد بنارس ، وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة جمل ، وعاد إلى غزنة ومعه الفيلة التي أخذها من جملتها فيل أبيض ، حدثني من رآه لمّا أخذت الفيلة

وقدمت إلى شهاب الدين وأمرت بالخدمة فخدمت جميعها إلا الابيض فإنه لم يخدم ، ولا يعجب أحد من قولنا الفيلة تخدم فإنها تفهم ما يقال لها، وقد شاهدت فيلاً بالموصل ، وفيَّاله يحدثه فيفعل ما يقول له .

ذكر قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الري ووفاة أخيه سلطان شاه

قد ذكرنا سنة ثمان وثمانين خروج السلطان طغرل بن ألب أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجقي من الحبس وملكه همذان وغيرها، وكان قد جرى بينه وبين قتلغ اينانج برت البهلوان صاحب البلاد حرب انهزم فيها قتلغ اينانج وتحصّن بالري ، وسار طغرل الى همذان ، وأرسل قتلغ اينانج إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستنجده ، فسار إليه في سنة ثمان وثمانين ، فلما تقاربا ندم قتلغ اينانج على استدعاء خوارزم شاه ، وخاف على نفسه فمضى من بين يديه ، وتحصن في قلعة له ، فوصل خوارزم شاه إلى الري وملكها وحصر قلعة طبرك ففتحها في يومين وراسله طغرل واصطلحا، وبقيت الري في يد خوارزم شاه ، فرتب فيها عسكرا يحفظها وعاد الى خوارزم لانه بلغه ان أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم ، فجدّ في السير خوفاً عليها ، فأتاه الخبر وهو في الطريق أن أهل خوارزم منعوا سلطان شاه عنها ولم يقدر على القرب منها وعاد عنها خائباً ، فشتى خوارزم شاه بخوارزم ، فلما انقض الشتاء سار إلى مرو لقصد أخيه سنة تسع وثمانين ، فترددت الرسل بينهما في الصلح ، فبينما هم في تقرير الصلح ، وإذ قد ورد على خوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لأخيه سلطان شاه يدعوه ليسلم إليه القلعة لأنه قد استوحش من صاحبه سلطان شاه ، فسار خوارزم شاه إليه مجدّاً فتسلم القلعة وصار معه ، وبلغ ذلك سلطان شاه ، ففت ذلك في عضده وتزايد كمده فمات سلخ رمضان سنة تسع وثمانين

إخمسمائة، فلما سمع خوارزم شاه بموته سار من ساعته إلى مرو فتسلمها وتسلم مملكة أخيه سلطان شاه جميعها وخزائنه ، وأرسل إلى ابنه علاء الدين محمد، وكان يلقب حينئذ قطب الدين ، وهو بخوارزم ، فأحضره فولاه نيسابور، وولى ابنه الكبير ملكشاه مرو، وذلك في ذي الحجة سنة تسع وثمانين ، فلما دخلت سنة تسعين وخمسمائة قصد السلطان طغرل بلد الري ، فأغار على من به من أصحاب خوارزم شاه ، ففر منه قتلغ اينانج بن البهلوان ، وأرسل إلى خوارزم شاه يعتذر ويسأل إنجازه مرة ثانية ، ووافق ذلك وصول رسول الخليفة إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل ، ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور بإقطاعه البلاد ، فسار من نيسابور إلى الري فتلقاه قتلغ اينانج ومن معه بالطاعة، وساروا معه ، فلما سمع السلطان طغرل بوصوله كانت عساكره متفرقة، فلم يقف ليجمعها بل سار إليه فيس معه فقيل له : إن الذي

تفعله ليس برأي والمصلحة أن تجيع العساكر، فلم يقبل ، وكان فيه شجاعة بل تمم مسيره فالتقى العسكران بالقرب من الري ، فحمل طغرل بنفسه في وسط عسكر خوارزم شاه ، فأحاطوا به والقوه عن فرسه وقتلوه في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول ، وحمل رأسه الى خوارزم شاه فسيره من يومه إلى بغداد، فنصب بها بباب النوبى عدّة أيام ، وسار خوارزم شاه إلى همذان وملك تلك البلاد جميعها ، وكان الخليفة الناصر لدين اللّه قد سير عسكراً إلى نجدة خوارزم شاه وسيّر له الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب ، فنزل على فرسخ من همذان ، فأرسل إليه خوارزم شاه يطلبه اليه ، فقال مؤيد الدين : ينبغي أن تحضر أنت وتلبس الخلعة من خيمتي ، وترددت الرسل بينهما في ذلك ، فقيل لخوارزم شاه إنها حيلة عليك حتى تحضر عنده ويقبض عليك ، فدخل خوارزم شاه إليه قصداً لأخذه ، فاندفع بين يديه إلى بضع الجبال فامتنع به ، فرجع خوارزم شاه إلى همذان ، ولمّا ملك همذان وتلك البلاد سلمها إلى قتلغ اينانج ، وأقطع كثيرا منها لمماليكه ، وجعل المقدم عليهم مياجق ، وعاد إلى خوارزم .

ذكر مسير وزير الخليفة إلى خوزستان وملكها

في هذه السنة في شعبان خلع الخليفة الناصر لدين الله على النائب في الوزارة مؤيّد الدين أبي عبد اللّه محمّد بن علي المعروف بابن القصّاب خلع الوزارة ، وحكم في الولاية ، وبرز في رمضان ، وسار إلى بلاد خوزستان وولي الأعمال بها ، وصار له فيها اصحاب واصدقاء ومعارَف ، وعرف البلاد ومن

أي وجه يمكن الدخول اليها والاستيلاء عليها، فلما ولى ببغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة بأن ب سله في عسكر إليها ليملكها له ، وكان عزمه أنه إذا ملك البلاد واستقر فيها أقام مظهراً للطاعة مستقلاً بالحكم فيها ليأمن على نفسه ، فاتفق ان صاحبها ابن شملة توفي واختلف أولاده بعده ، فراسل بعضهم مؤيد الدين يستنجده لما بينهم من الصحبة القديمة، فقوي الطمع في البلاد، فجهزت العساكر وسيّرت معه إلى خوزستان فوصلها سنة إحدى وتسعين ، وجرى بينه وبين أصحاب البلاد مراسلات ومحاربة عجزوا عنها ، وملك مدينة تستر في المحرم ، وملك غيرها من البلاد، وملك القلاع منها قلعة الناظر وقلعة كاكرد وقلعة الأموج وغيرها من الحصون والقلاع ، وأنفذ بني شملة أصحاب بلاد خوزستان إلى بغداد فوصلوا في ربيع الأول .

ذكر حصر العزيز مدينة دمشق

في هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، وهو صاحب مصر إلى مدينة دمشق ، فحصرها وبها أخوه الأكبر الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ، وكنت حينئذ بدمشق ، فنزل بنواحي ميدان الحصى ، فأرسل الأفضل إلى عمّه الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وهو صاحب الديار الجزرية يستنجده ، وكان الأفضل غاية الواثق به والمعتمد عليه ، وقد سبق ما يدل على ذلك ، فسار الملك العادل الى دمشق ، هو والملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، وناصر الدين محمد بن تقي الدين صاحب حماة، وأسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص ، وعسكر الموصل وغيرها كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق واتفقوا على حفظها علما منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم ، فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له على البلد، فترددت الرسل حينئذ في الصلح ، فاستقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز، وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها الغور للأفضل على ما كانت عليه ، وان يعطي الأفضل اخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية ، وأن يكون للعادل بمصر اقطاعه الأول ، واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد من الملوك إلى بلده.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كانت زلزلة في ربيع الأول بالجزيرة والعراق وكثير من البلاد سقطت منها الجبانة التي عند مشهد أمير المؤمنين علي – عليه السلام –.

وفيها في جمادى الآخرة اجتمعت زغب وغيرها من العرب وقصدوا مدينة النبيَّ صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم هاشم بن قاسم أخو امير المدينة ، فقاتلهم فقتل هاشم ، وكان امير المدينة قد توجَّه إلى الشام فلهذا طمعت العرب فيه .

وفيها توفّي القاضي ابو الحسن احمد بن محمد بن عبد الصمد الطرسوسي الحلبي بها في شعبان ، وكان من عباد الله الصالحين رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم

قد ذكرنا ملك مؤيّد الدين بن القصاب بلاد خوزستان ، فلما ملكها سار منها الى ميسان من اعمال خوزستان فوصل إليه قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد ، وقد تقدم ذكر تغلّب خوارزم شاه عليها ومعه جماعة من الأمراء ، فأكرمه وزير الخليفة ، وأحسن إليه ، وكان سبب مجيئه انه جرى بينه وبين عسكر خوارزم شاه ومقدمهم مياجق مصاف عند زنجان ، واقتتلوا فانهزم قتلغ اينانج وعسكره ، وقصد عسكر الخليفة ملتجئاً إلى مؤيّد الدين الوزير، فأعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج إليه ، وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء ، ورحلوا إلى كرمانشاه ، ورحل منها إلى همذان ، وكان بها ولد خوارزم شاه ومياجق والعسكر الذين معهما، فلما قاربهم عسكر الخليفة فارقي ا الخوارزميون وتوجهوا إلى الري ، واستولى الوزير على همذان في شوّال من هذه السنة ثمَّ رحل هو وقتلغ اينانج خلفهم ، فاستولوا على كل بلد جازوا به منها خراقان ومزدغان وساوة وآوة ، وساروا إلى الري ففارقها الخوارزميون الى خوار الري ، فسير الوزير خلفهم عسكراً ففارقها الخوارزميون إلى دامغان وبسطام وجرجان ، فعاد عسكر الخليفة إلى الري ، فأقاموا بها، فاتفق قتلغ اينانج ومن معه من الأمراء على الخلاف على الوزير وعسكر الخليفة لأنهم رأوا البلاد قد خلت من عسكر خوارزم شاه فطمعوا فيها ، فدخلوا الري فحصرها وزير الخليفة ، ففارقها قتلغ اينانج وملكها الوزير ونهبها العسكر، فأمر الوزير بالنداء بالكفّ عن النهب .

وسار قتلغ أينانج ومن معه من الأمراء إلى مدينة آوه وبها شحنة الوزير فمنعهم من دخولها ، فساروا عنها ورحل الوزير في أثرهم نحو همذان ، فبلغه وهو في الطريق أن قتلغ أينانج قد اجتمع معه عسكر وقصد مدينة كرج ، وقد نزل على دربند هناك ، فطلبهم

الوزير فلما قاربهم التقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم قتلغ اينانج ونجا بنفسه ، ورحل الوزير من موضع المصاف إلى همذان فنزل بظاهرها فأقام نحو ثلاثة أشهر فوصله رسول خوارزم شاه تكش ، وكان قد قصدهم منكراً أخذه البلاد من عسكره ويطلب إعادتها وتقرير قواعدها والصلح ، فلم يجب الوزير إلى ذلك ، فسار خوارزم شاه مجدّاً إلى همذان ، وكان الوزير مؤيد الدين بن القصاب قد توفّي في أوائل شعبان فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصاف نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، فقتل بينهم كثير من العسكرين وانهزم عسكر الخليفة ، وغنم الخوارزميون منهم شيئاً كثيراً ، وملك خوارزم شاه همذان ونبش الوزير من قبره وقطع رأسه وسيره إلى خوارزم وأظهروا انه قتله في المعركة ثم إن خوارزم شاه أتاه من خراسان ما أوجب ان يعود إليها ، فترك البلاد وعاد إلى خراسان .

ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس

في هذه السنة في شعبان غزا أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب والأندلس بلاد الفرنج بالأندلس ، وسبب ذلك أنّ الفنش ملك الفرنج بها ومعه ملكة مدينة طليطلة ، كتب إلى يعقوب كتاباً باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، أما بعد أيُّها الأمير، فإنه لا يخفى على كل ذي عقل لازب ولاذي لب ثاقب أنك أمير الملّة الحنيفية كما أنا أمير الملة النصرانية، وأنك من لا يخفى عليه ما هو عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية واشتمالهم على الراحات ، وأنا أسومهم الخسف وأخلي الديار وأسبي الذراري

وأمثل بالكهول وأقتل الشباب ولا عذر لك في التخلّف عن نصرتهم وقد امكنتك يد القدرة، وأنتم تعتقدون أن اللهّ فرض عليكم قتال عشرة منّا بواحد منكم ، والآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فقد فرض عليكم قتال اثنين منّا بواحد منكم ، ونحن الآن نقاتل عدداً منكم بواحد منا ولا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً، ثمِ حكي لي عنك أنك اخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتمطل نفسك عاماَ بعد عام تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى، ولا أدري الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك ، ثم حكي لي عنك أنك لا تجد سبيلاً للحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم فيها ، فها أنا أقول لك ما فيه واعتذر عنك ولك أن توفيني بالعهود والمواثيق والأيمان أن تتوجه بجملة من عندك في المراكب والشواني وأجوز إليك بحملتي وأبارزك في أعز الأماكن عندك ، فإن كان لك فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهدية مثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك ، واستحققت إمارة الملتين والتقدم على الفئتين والله

يسهّل الارادة ويوفق السعادة بمنه لا رب غيره ولا خير إلا خيره فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب في أعلاه هذه الآية { ارجع إليهم فلنأتيَنَّهم بجنود لا قَبِلَ لهم بها ولنخرجنَّهم منها أذلة وهم صاغرون }(ا) فأعاده إليه وجمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر المجاز إلى الأندلس ، وقيل كان سبب عبوره إلى الأندلس أنّ يعقوب لما قاتل الفرنج سنة ست وثمانين وصالحهم ، بقي طائفة من الفرنج لم ترض الصلح –كما ذكرناه – فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعاً من الفرنج ، وخرجوا إلى بلاد الإِسلام فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا وعاثوا فيها عيثاً شدياً، فانتهى ذلك الى يعقوب فجمع العساكر وعبر المجاز إلى الأندلس في جيش يضيق عنه الفضاء، فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيهم ودانيهم ، وأقبلوا إليه مجدّين على قتاله واثقين بالظفر لكثرتهم ، فالتقوا تاسعٍ شعبان شمالي قرطبة عند قلعة رياح بمكان يعرف بمرج الحديد فاقتتلوا قتالاً شديدا فكانت الدائرة أولا على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا قبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم { وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هي العليا والله عزيز حكيم}(2) .

وكان عدد من قتل من الفرنجِ مائة الف وستة وأربعين ألفاً، وأسر ثلاثة عشر ألفاً وغنم المسلمون منهم شيئاً عظيماَ، فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً، ومن الخيل ستة وأربعون ألفاً، ومن البغال مائه الف ومن الحمير مائة ألف ، وكان يعقوب قد نادى في عسكره من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح ، وأحصى ما حمل إليه منه فكان زيادة على

سبعين ألف لبس ، وقتل من المسلمين نحو عشرين ألفاً ، ولما انهزم الفرنج اتبعهم أبو يوسف فرآهم قد اخلوا قلعة رياح وساروا عنها من الرعب والخوف ، فملكها وجعل فيها والياً وجنداً يحفظونها وعاد إلى مدينة أشبيلية .

وأما الفنش فإنه لما انهزم حلق رأسه ونكس صليبه وركب حماراً وأقسم أن لا يركب فرساً ولا بغلاً حتى تنصر النصرانية، فجمع جموعاً عظيمة، وبلغ الخبر بذلك إلى يعقوب ، فأرسل الى بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه، فأتاه من

(1) سورة النمل 37 .

(2) سورة التوبة 40 .

المتوطعة والمرتزقين جمع عظيم ، فالتقوا في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة، وغنم المسلمون ما معهمِ من الأموال والسلاح والدواب وغيرها ، وتوجَّه إلى مدينة طليطلة ، فحصرها وقاتلها قتالاَ شديداً ، وقطع أشجارها وشنّ الغارة على ما حولها من البلاد، وفتح فيها عدّة حصون فقتل رجالها وسبى حريمها وخرّب دورها وهدم أسوارها ، فضعفت النصرانية حينئذ وعظم أمر الِإسلام بالأندلس ، وعاد يعقوب إلى أشبيلية فأقام بها، فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين سار عنها الى بلاد الفرنج وذلوا واجتمِع ملوكهم وأرسلوا يطلبون الصلح ، فأجابهم إليه بعد ان كان عازماً على الامتناع مريداَ لملازمة الجهاد الى ان يفرغ منهم فاتاه خبر علي بن إسحق الملثم الميورقي أنه فعل بافريقية ما نذكره من الأفاعيل الشنيعة، فترك عزمه وصالحهم مدة خمس سنين ، وعاد الى مراكش آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

ذكر فعلة الملثم بافريقية

لما عبر أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب إلى الأندلس – كما ذكرناه – وأقام مجاهداً ثلاث سنين انقطعت اخباره عن افريقية، فقوي طمع علي بن إسحاق الملثم الميورقي ، وكان بالبريّة مع العرب فعاود قصد افريقية ، فانبث جنوده في البلاد فخربوها وأكثروا الفساد فيها ، فمحيت آثار تلك البلاد وتغيرت وصارت خالية من الأنيس خاوية على عروشها ، وأراد المسير إلى بجاية ومحاصرتها لاشتغال يعقوب بالجهاد ، وأطهر أنه اذا استولى على بجاية سار إلى المغرب ، فوصل

الخبر الى يعقوب بذلك فصالح الفرنج – على ما ذكرناه – وعاد الى مراكش عازما على قصده ، واخراجه من البلاد كما فعله سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وقد ذكرناه .

ذكر ملك عسكر الخليفة اصفهان

في هذه السنة جهّز الخليفة الناصر لدين اللّه جيشاً وسيّره الى اصفهان ومقدمهم سيف الدين طغرل مقطع بلد اللحف من العراق ، وكان باصبهان عسكر لخوارزم شاه مع ولده ، وكان أهل أصفهان يكرهونهم ، فكتب صدر الدين الخجندي رئيس الشافعية بأصفهان الديوان ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد إلى من يصل من الديوان من العساكر، وكان بعد الحاكم بأصفهان على جميع أهلها، فسيّرت العساكر، فوصلوا الى

اصفهان ونزلوا بظاهر البلد ، وفارقه عسكر خوارزم شاه وعادوا إلى خراسان ، وتبعهم بعض عسكر الخليفة فتحفظوا منهم وأخذوا من ساقة العسكر من قدروا عليه ، ودخل عسكر الخليفة الى اصفهان وملكوها .

ذكر ابتداء حال كوكجا وملكه بلد الري وهمذان وغيرها

لما عاد خوارزم شاه إلى خراسان كما ذكرنا اتفق المماليك الذين للبهلوان والأمراء ، وقدموا على أنفسهم كوكجة وهو من أعيان البهلوانية ، واستولوا على الري وما جاورها من البلاد ، وساروا الى اصفهان لإِخراج الخوارزمية منها ، فلما قاربوها سمعوا بعسكر الخليفة عندها ، فأرسل إلى مملوك الخليفة سيف الدين طغرل يعرض نفسه على خدمه الديوان ويظهر العبودية ، وأنه إنما قصد أصفهان في طلب العساكر الخوارزمية ، وحيث رآهم فارقوا أصفهان سار في طلبهم فلم يدركهم ، وسار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همذان ، وأما كوكجة فإنه تبع الخوارزمية إلى طبس ، وهي من بلاد الإِسماعيلية ، وعاد فقصد أصفهان وملكها ، وأرسل الى بغداد يطلب أن يكون له الري وخوار الري وساوة وقم وقاجان وما ينضم إليها من حد مزدغان ، وتكون اصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة ، فأجيب الى ذلك ، وكتب له منشور بما طلب وأرسلت له الخلع ، فعظم شأنه وقوي أمره وكثرت عساكره ، وتعظم على أصحابه .

ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها

وفي هذه السنة أيضاً خرج الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر في عساكره الى دمشق يريد حصرها، فعاد

عنها منهزماً، وسبب ذلك أن من عنده من مماليك أبيه المعروفين بالصلاحية فخر الدين جركس وسرانقر وقراجا وغيرهم ، كانوا منحرفين عن الأفضل علي بن صلاح الدين لأنه كان قد أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصري وسنقر الكبير وأيبك وغيرهم ، فكانوا لا يزالون يخوفون العزيز من أخيه ، ويقولون : إن الأكراد والمماليك الأسدية من كسسكر مصر يريدون أخاك ونخاف ان يميلهم اليه ويخرجوك من البلاد، والمصلحة ان تأخذ دمشق ، فخرج في العام الماضي وعاد – كما ذكرناه – فتجهّز هذه السنة ليخرج فبلغ الخبر إلى الأفضل ، فسار من دمشق إلى عمه الملك العادل ، فاجتمع به بقلعة جعبر ودعاه إلى نصرته ، وسار من عنده إلى

حلب إلى أخيه الملك الظاهر غازي فاستنجد به ، وسار الملك العادل من قلعة جعبر إلى دمشق فسبق إِليها ودخلها، وكان الأفضل لثقته به قد أمر نوابه بإدخاله إلى القلعة ، ثم عاد الأفضل من حلب إلى دمشق ، فأرسل مقدم الأسدية ، وهو سيف الدين أيازكوش وغيره منهم ومن الأكراد أبو الهيجاء السمين وغيره إلى الأفضل والعادل بالانحياز إليهما والكون معهما ويأمرهما بالاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلموه إليهما .

وكان سببُ الانحراف عن العزيز وميلهم إلى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال إلى المماليك الناصرية، وقدمهم ووثق بهم ، ولم يلتفت إلى هؤلاء الأمراء ، فأنفوا من ذلك ومالوا إلى أخيه وأرسلوا إلى الأفضل والَعادل ، فاتفقا على ذلك واستقرت القاعدة بحضور رسل لأمراء أن الأفضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق إلى عمه الملك العادل ، وخرجا من دمشق فانحاز إليهما من ذكرنا، فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزماً يطوي المراحل خوف الطلب ولا يصدق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه إلى أن وصل إلى مصر، وأما العادل والأفضل فإنهما أرسلا إلى القدس وفيه نائب العزيز فسلمه إليهما، وسارا فيمن معهما من الأسدية والأكراد إلى مصر فرأى العادل انضمامة العساكر الى الأفضل واجتماعهم عليه فخاف أنه يأخذ مصر ولا يسلم اليه دمشق فأرسل حينئذ سراً إلى العزيز يأمره بالثبات ، وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها، وتكفل بأنه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها، فجعل العزيز الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم غيرهم ، ووصل العادل والأفضل إلى بلبيس فنازلوا من بها من الناصرية ، وأراد الأفضل مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل إلى مصر فمنعه العادل

من الأمرين ، وقال : هذه عساكر الإسلام فإذا اقتتلوا في الحرب فمن يرد العدو الكافر، وما بها حاجة إلى هذا فإن البلاد لك وبحكمك ، ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهرا زالت هيبة البلاد، وطمع فيها الأعداء وليس فيها من يمنعك عنها، وسلك معه مثال هذا فطالت الايام وأرسل إلى العزيز سراً يأمره بإرسال القاضي الفاضل ، وكان مطاعاً عند البيت الصلاحي لعلو منزلته كانت عند صلاح الدين ، فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح ، وزاد القول ونقص وانفسخت العزائم ، واستقر الأمر على أن يكون للأفضل القدس وجميع البلاد بفلسطين

وطبرية والأردن وجميع ما بيده ، ويكون للعادل أقطاعه الذي كان قديما ويكون مقيماً بمصر عند العزيز، وإنما اختار ذلك لأنّ الأسدية والأكراد لا يريدون العزيز، فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريد، فلما استقر الأمر على ذلك وتعاهدوا عاد الأفضل إلى دمشق وبقي العادل بمصر عند العزيز .

ذكر عدة حوادث

في ذي القعدة تاسع عشر وقع حريق عظيم ببغداد بعقد المصطنع فاحترقت المربعة التي بين يديه ودكان ابن البخيل الهراس ، وقيل كان ابتداؤها من دار ابن البخيل .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلد الهند

في هذه السنة سار شهاب الدين الغوري صاحب غزنة إلى بلد الهند، وحصر قلعة بهنكر، وهي قلعة عظيمة منيعة فحصرها، فطلب أهلها منه الأمان على أن يسلّموا إليه فأمنهم وتسلمها، وأقام عندها عشرة أيام حتى رتب جندها وأحوالها، وسار عنها إلى قلعة كوالبر– وبينهما مسيرة خمسة أيام – وفي الطريق نهر فجازه ووصل إلى كوالبر، وهى قلعة منيعة حصينة على جبل لا يصل إليها حجر منجنيق ، ولا نشاب ، وهي كبيرة، فأقام عليها صفرا جميعه يحاصرها فلم يبلغ منها غرضا، فراسله من بها في الصلح ، فأجابهم إليه على أن يقر القلعة بأيديهم على مال يحملونه إليه ، فحملوا إليه فيلًا حمله ذهب ، فرحل عنها إلى بلاد آي وسور فأغار عليها ونهبها وسبى وأسر ما يعجز العاد حصره ثم عاد إِلى غزنة سالماً .

ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الأفضل

في هذه السنة في السابع والعشرين من رجب ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة دمشق من ابن أخيه الأفضل علي بن صلاح الدين ، وكان أبلغ الأسباب في ذلك وثوق الأفضل بالعادل ، وأنه بلغ من وثوقه أنه أدخله بلده وهو غائب عنه ، ولقد أرسل إليه أخوه الظاهر غازي صاحب حلب يقول له : أَخْرِج عمّما من بيننا فإنه لا يجيء علينا منه خير، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد، وأنا أعرف به منك ، واقرب اليه فإنه عمي مثل ما هو عمك وأنا زوج ابنته ، ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكنت أنا أولى به منك . فقال له الأفضل : أنت سيّء الظن في كل أحد، أي مصلحة لعمّنا في أن يؤذينا، ونحن إذا اجتمعت كلمتنا وسيّرنا معه العساكر من عندنا كلنا ملك من البلاد أكثر من بلادنا ونربح سوء الذكر وهذا كان أبلغ الأسباب ولا يعلمها كل احد .

وأما غير هذا فقد ذكرنا مسير العادل والأفضل الى مصر وحصارهم بلبيس وصلحهم مع الملك العزيز ابن صلاح الدين ومقام العادل معه بمصر، فلما أقام عنده استماله وقرر معه أنه يخرج معه إلى دمشق ويأخذها من أخيه ويسلمها اليه ، فسار معه من مصر إلى دمشق وحصروها، واستمالوا أميراً من أمراء الأفضل يقال له العزيز بن أبي ، غالب الحمصي ، وكان الأفضل كثير الإحسان اليه والاعتماد عليه والوثوق به ، فسلم أليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرفي ليحفظه فمال إلى العزيز والعادل ووعدهما أنه يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه الى البلد غفلة، ففتحه اليوم السابع والعشرين من رجب وقت العصر وأدخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه ، فكلم يشعر الأفضل إلا وعمه معه في دمشق ، وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الأخضر غربي دمشق ، فلمّا رأى الأفضل أن البلد قد ملك خرج إلى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد و–اجتمعا بالعادل ، وقد نزل في دار أسد الدين شيركوه وتحادثوا فاتّفق العادل والعزيز على أن أوهما الأفضل أنهما يبقيان عليه البلد خوفا أنه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما ومعه العامة، فأخرجهم من البلد لأن العادل لم يكن في كثرة ، وأعاد الأفضل إلى القلعة وبات العادل في دار شيركوه ، وخرج العزيز إلى الخيم فبات فيها، وخرج العادل من الغد إلى جوسقه فأقام به ، وعساكره في البلد في كل يوم يخرج الأفضل إليهما ويجتمع بهما، فبقوا كذلك أياماً . ثم أرسلا إليه وأقراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة ان تعطى

قلعة صرخد له ويسلم جميع أعمال دمشق ، فخرج الأفضل ونزل في جوسق بظاهر البلد غربي دمشق ، وتسلّم العزيز القلعة ودخلها ، وأقام بها أياماً فجلس يوماً في مجلس شرابه ، فلما أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه يعيد البلد إلى الأفضل فنقل ذلك الى العادل في وقته ، فحضر المجلس في ساعته والعزيز سكران ، فلم يزل به حتى سلم البلد إليه وخرج منه وعاد إلى مصر، وسار الأفضل إلى صرخد، وكان العادل يذكر أن الأفضل سعى في قتله ، فلهذا أخذ البلد منه ، وكان الأفضل ينكر ذلك ويتبرأ منه { واللّه يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون } .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة هبت ريح شديدة بالعراق واسودت لها الدنيا ووقع ومل أحمر واستعظم الناس ذلك وكبروا واشتعلت الأضواء بالنهار وفيها قتل صدر الدين محمود بن

عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندي رئيس الشافعية بأصفهان قتله فلك الدين سنقر الطويل شحنة اصفهان بها وكان قدم بغداد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة واستوطنها وولي النظر في المدرسة النظامية ببغداد ولما سار مؤيد الدين بن القصاب إلى خوزستان سار في صحبته فلما ملك الوزير أصفهان أقام ابن الخجندي بها في بيته وملكه ومنصبه فجرى بينه وبين سنقر الطويل شحنة اصفهان للخليفة منافرة فقتله سنقر.

وفي رمضان درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك البغدادي الفقيه الشافعي بالمدرسة النظامية ببغداد .

وفي شوال منها أثبت نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الرازي في الوزارة ببغداد وكان قد توجه إلى بغداد لما ملك ابن القصاب الري .

وفيها ولي أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة ديوان الإنشاء ببغداد وكان كاتباً مفلقاً وله شعر جيد.

وفي صفر منها توفي الفخر محمود بن عليّ القوفاني الفقيه الشافعي بالكوفة عائداً من الحج وكان من أعيان أصحابه محمد بن يحيى .

وفي رجب منها توفي أبو الغنائم بن عليّ بن المعلم الشاعر الهرثي (والهرث بضم الهاء والثاء المثلثة قرية من أعمال واسط) عن إحدى وتسعين سنة .

وفي رابع شعبان منها توفي الوزير مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عليّ بن القصاب بهمذان وقد ذكرنا من كفايته ونهضته ما فيه كفاية .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ذكر إرسال الأمير أبي الهيجاء إلى همذان وما فعله

وصل إلى بغداد أمير كبير من أمراء مصر اسمه ابو الهيجاء، ويعرف بالسمين لأنه كان كثير السمن ، وكان من أكابر أمراء مصر، وكان في أقطاعه أخيراً البيت المقدس وغيره مما يجاوره ، فلما ملك العزيز والعادل مرتبة دمشق من الأفضل أخذ القدس منه ، ففارق الشام وعبر الفرات إلى الموصل ، ثم انحدر إلى بغداد لأنه طلب من ديوان الخلافة ، فلما وصل إليها أكرم إكراماً كثيراً ، ثم أُمر بالتجهيز والمسير الى همذان مقدماً على عساكر البغدادية ، فسار إليها والتقى عندها بالملك أوزبك بن البهلوان ، وأمير علم وابنه وابن سطمش وغيرهم ، وهم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة ، فلما اجتمع بهم وثقوا إليه ولم يحذروه فقبض على أوزبك وابن سطمش وابن قرا بموافقة من أمير علم ، فلما وصل الخبر بذلك إلى بغداد أنكرت هذه الحال على أبي الهيجاء وأمر بالإفراج عن الجماعة، وسيرت لهم الخلع من بغداد تطييباً لقلوبهم . فلم يسكنوا بعد هذه الحادثة ولا آمنوا، ففارقوا أبا الهيجاء السمين ، فخاف الديوان ، فلم يرجع إليه ولم يمكنه أيضاً المقام ، فعاد يريد إربل لأنه من بلدها هو، فتوفّي قبل وصوله إليها ، وهو من الأكراد الحكمية من بلد إربل .

ذكر ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبنين ورحيلهم عنها

في هذه السنة في شوال ملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة يافا من الساحل الشامي ، وهو بيد الفرنج – لعنهم الله –، وسبب ذلك أن الفرنج كان قد ملكهم الكندهري – على ما ذكرناه قبل – وكان الصلح قد استقر بين المسلمين والفرنج أيّام صلاح الدين يوسف بن أيوب –رحمه الله تعالى –فلما توفي وملك أولاده بعده –كما

ذكرناه – جدَّد الملك العزيز الهدنة مع الكندهري ، وزاد في مدة الهدنة ، وبقي ذلك إلى الآن ، وكان بمدينة بيروت أمير يعرف بأسامة، وهو مقطعها فكان يرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج ، فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرّة إِلى الملك العادل بدمشق وإلى الملك العزيز بمصر، فلم يمنعا اسامة من ذلك ، فأرسلوا إلى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون إليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون إن لم تنجدونا وإلا أخذ المسلمون البلاد ، فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة ، وكان أكثرهم من ملك الألمان ، وكان المقدّم عليهم قسّ يعرف بالخنصلير، فلمّا سمع العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب العساكر، وأرسل إلى ديار الجزيرة والموصل يطلب العساكر، فجاءته الأمراء واجتمعوا على عين جالوت ، فأقاموا شهر رمضان وبعض شوّال ، ورحلوا إلى يافا وملكوا المدينة ، وامتنع من بها بالقلعة التي لها، فخرب المسلمون المدينة، وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهراً بالسيف في يومها، وهو يوم الجمعة، وأخذ كل ما بها غنيمة وأسراً وسبياً . ووصل الفرنج من عكّا الى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا، فوصلهم الخبر بها بملكها فعادوا وكان سببُ تأخرهم أن ملكهم الكندهري سقط من موضع عالٍ بعكّا فمات فاختلفت أحوالهم فتأخروا لذلك ، وعاد المسلمون إلى عين جالوت ، فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت ، فرحل العادل والعسكر في ذي القعدة إلى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت ، فسار إليها جمع من العسكر وهدموا سور المدينة سابع ذي الحجة ، وشرعوا في تخريب دورها وتخريب

القلعة، فمنعهم أسامة من ذلك وتكفّل بحفظها، ورحل الفرنج من عكّا إلى صيدا ، وعاد عسكر المسلمين من بيروت ، فالتقوا هم والفرنج بنواحي صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل ، وسار الفرنج تاسع ذي الحجة فوصلوا إلى بيروت ، فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين ، فملكوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال ، فكانت غنمية باردة . فأرسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقي منها فإن صلاح الدين كان قد خرب أكثرها ، وسافرت العساكر الإسلامية الى صور فقطعوا أشجارها وخرّبوا ما لها من قرى وأبراج ، فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت إلى صور وأقاموا عليها، ونزل المسلمون عند قلعة هونين ، وأذن للعساكر الشرقية بالعود ظناً منه أن الفرنج يقيمون ببلادهم ، وأراد أن يعطي العساكر المصرية دستوراً بالعود ، فأتاه الخبر منتصف المحرّم أن الفرنج يريدون أن يحصروا حصن تبنين ، فسير العادل إليه عسكراً يحمونه

ويمنعون عنه

ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين أول صفر سنة أربع وتسعين ، وقاتلوا من به وجدّوا في القتال ونقبوه من جهاتهم ، فلما علم العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب منه أن يحضر هو بنفسه ، ويقول له : إن حضرت وإلا فلا يمكن حفظ هذا الثغر، فسار العزيز مجداً فيمن بقي معه من العساكر، وأما من تحصَّن بتبنين فإنهم لما رأوا الثقوب قد خرّبت القلعة ولم يبق إلا أن يملكوها بالسيف نزل بعض من فيها إلى الفرنج يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا القلعة، وكان المرجع إلى القسيس الخنصلير من أصحاب ملك الألمان ، فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام : إن سلمتم الحصن استأسركم هذا وقتلكم فاحفظوا نفوسكم ، فعادوا كأنهم يراجعون من في القلعة ليسلموا ، فلما صعدوا إليها أصرُّوا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه فحموها إلى أن وصل الملك العزيز إلى عسعقلان في ربيع الأول ، فلما سمع الفرنج بوصوله واجتماع المسلمين ، وأن الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم وأن أمرهم إلى امرأة وهي الملكة، فاتفقوا وأرسلوا إلى ملك قبرس واسمه هيمري فأحضروه ، وهو أخو الملك الذي أسر بحطين – كما ذكرناه – فزوجوه بالملكة زوجة الكندهري ، وكان رجلًا عاقلًا يحب السلامة والعافية، فلما ملكهم لم يعد إلى الزحف على الحصن ولا قاتل ، واتفق وصول العزيز أوّل شهر ربيع الآخر، ورحل هو والعساكر إلى جبل الخيل الذي يعرف بجبل عاملة ، فأقاموا أياماً والأمطار متداولة فبقي إلى ثالث عشر الشهر، ثم سار وقارب الفرنج ، وأرسل

رماة النشاب فرموهم ساعة وعادوا ، ورتَّب العساكر ليزحف إلى الفرنج ويجد في قتالهم ، فرحلوا إلى صور خامس عشر الشهر المذكور ليلا ، ثم رحلوا إلى عكّا ، فسار المسلمون فنزلوا اللجون ، وتراسلوا في الصلح وتطاول الأمر فعاد العزيز إلى مصر قبل انفصال الحال ، وسببُ رحيله أن جماعة من الأمراء ، وهم ميمون القصري وأسامة وسراسنقر والجحاف وابن المشطوب وغيرهم قد عزموا على الفتك به وبفخر الدين جركس مدبر دولته – والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك –، فلما سمع بذلك سار الى مصر وبقي العادل وتردّدت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح في شعبان سنة أربع وتسعين ، فلما انتظم الصلح عاد العادل إلى دمشق ، وسار منها إلى ماردين من أرض الجزيرة، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة سيف الإسلام وملك ولده

في شوّال من هذه السنة توفّي سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين ، وهو صاحب اليمن بزبيد، وقد ذكرنا كيف ملك ، وكان شديد السيرة مضيقاً على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء ، وأراد ملك مكّة حرسها الله تعالى – فأرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى أخيه صلاح الدين في المعنى ، فمنعه من ذلك ، وجمع من الأموال ما لا يحص حتى أنه من كثرته كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره ، ولمّا توفي ملك بعده ابنه اسماعيل ، وكان أهوج كثير التخليط بحيث أنه ادعى أنه قرشيّ من بني أمية ،وخطب لنفسه بالخلافة وتلقب بالهادي ، فلما سمع عمه الملك العادل ذلك ساءه وأهمه وكتب إليه يلومه ويوبخه ويأمره بالعود إلى نسبه الصحيح وبترك ما ارتكبه مما يضحك الناس منه فلم يلتفت إليه ولم يرجع ، وانضاف إلى ذلك أنه أساء السيرة مع أجناده وأمرائه ، فوثبوا عليه فقتلوه وملكوا بعده أميراً من مماليك أبيه .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الآخر توفّي أبو بكر عبد الله بن منصور بن عمران الباقلاني المقري الواسطي بها عن ثلاث وسبعين سنة وثلاثة أشهر وأيام ، وهو آخر من بقي من أصحاب القلانسي ، وفي جمادى الآخرة توفّي قاضي القضاة أبو طالب علي بن البخاري ببغداد، ودفن بتربته في مشهد باب التين .

وفيها في ربيع الأخر توفّي ملكشاه بن خوارزم شاه تكش بنيسابور، وكان أبوه قد جعله فيها واضاف إليه عساكر جميع

بلاده التي بخراسان ، وجعله وليّ عهده في الملك ، وخلف ولد اسمه هند وخان ، فلما مات جعل فيها أبوه خوارزم شاه بعده ولده الأخر قطب الدين محمداً ،وهو الذي ملك بعد أبيه ،وكان بين الأخوين عداوة مستحكمة أفضت الى ان محمداً لما ملك بعد أبيه هرب هندوخان بن ملكشاه منه على ما نذكره .

وفيها توفّي شيخنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن علي الفراتي الضرير الفقيه الشافعي كان إماماً في الفقه مدرساً صالحاً كثير الصلاح سمعتُ عليه كثيراً لم أر مثله رحمه الله تعالى – ولقد شاهدت منه عجباً يدل على دينه وإرادته بعمله وجه الله تعالى ، وذلك أني كنت اسمع عليه ببغداد سنن أبي عبد الرحمن النسائي ، وهو كتاب كبير

والوقت ضيق لأني كنت مع الحجاج قد عدنا من مكّة حرسها الله ، فبينما نحن نسمع عليه مع أخي الأكبر مجدّ الدين أبي السعادات إذ قد أتاه إنسان من أعيان بغداد، وقال له : قد برز الأمر لنحضر كذا ، فقال : أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت والذي يراد مني لا يفوت ، فقال : أنا لا أحسن أذكر هذا في مقابل أمر الخليفة، فقال :لا عليك قل قال أبو القاسم لا احضر حتى يفرغ السماع ، فسألناه ليمشي معه فلم يفعل ذلك ، وقال : اقرؤا فقرأنا، فلما كان الغد حضر غلام لنا، وذكر ان امير الحاج الموصلي قد رحل ، فعظم الأمر علينا فقال : ولم يعظم عليكم العود إلى أهلكم وبلدكم فقلنا لأجل فراغ هذا الكتاب ، فقال : إذا رحلتم أستعير دابة وأركبها فأسير معكم وأنتم تقرؤون ، فإذا فرغتم عدت ، فمض الغلام ليتزود ونحن نقرأ، فعاد وذكر أن الحجاج لم يرحلوا ، ففرغنا من الكتاب ، فانظر إلى هذا الدين المتين يرد أمر الخليفة وهو يخاقه ويرجوه ، ويريد يسير معنا ، ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد

في هذه السنة في المحرّم توفّي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين الخابور والرقة ، وقد تقدّمِ ذكره كيف ملكها سنة تسع وسبعين ، وكان رحمه اللّه عادلاً حسن السيرة في رعيته عفيفاَ عن اموالهم واملاكهم مواضعا يحب أهل العلم والدين ويحترمهم ويجلس معهم ويرجع إلى أقوالهم إلا أنه كان بخيلًا شديد البخل ، وملك بعده ابنه قطب الدين محمد وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برتقش مملوك أبيه ، وكان ديّنا خيراً عادلاً حسن السيرة كثير البر والإحسان إلى الفقراء ، وكان رحمه اللهّ شديد التعصب على مذهب الحنفية كثير الذم للشافعية ، فمن تعصّبه انه بنى مدرسة للحنفية بسنجار، وشرط أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية ، وشرط أن يكون البواب والفراش على مذهب أبي حنيفة، وشرط للفقهاء طبيخاً يطبخ ذلك كل يوم ، وهذا نظر حسن رحمه الله .

ذكر ملك نور الدين نصيبين

في هذه السنة في جمادى الأولى سار نور الدين أرسلان لثماه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل إلى مدينة نصيبين فملكها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد، وسبب ذلك أن عمه عماد الدين كان له نصيبين ، فتطاول نوابه بها واستولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل وهي تجاور نصيبين ، فبلغ الخبر مجاهد الدين قايماز القائم بتدبير مملكة نور الدين بالموصل كلها ، والمرجوع إليه فيها، فلم يعلم مخدومه بذلك لما علم من قلة صبره على احتمال مثل هذا، وخاف ان يجري خلف بينهم ، فأرسل من عنده رسولاً إلى عماد الدين في المعنى وقبح هذا الفعل الذي فعله النواب بغير أمره ، وقال : إنني ما أعلمت نور الدين بالحال لئلا يخرج عن يدك فإنه

ليس كوالده وأخاف أن يبدو منه ما يخرج الأمر فيه عن يدي ، فأعاد الجواب أنهم لم يفعلوا إلا ما أمرتهم به ، وهذه القرى من أعمال نصيبين ، فترددت الرسل بينهما، فلم يرجع عماد الدين عن أخذها ، فحينئذ أعلم مجاهد الدين نور الدين بالحال ، فأرسل نور الدين رسولاً من مشايخ دولته ممن خدم جدّهم الشهيد زنكي ، ومن بعده وحمله رسالة فيها بعض الخشونة فمض الرسول ، فلحق عماد الدين قد مرض ، فلما سمع الرسالة لم يلتفت ، وقال لا أعيد ملكي ، فأشار الرسول من عنده حيث هو من مشايخ دولتهم بترك وتسليم ما أخذه ، وحذره عاقبة ذلك فأغلظ عليه عماد الدين القول وعرض بذم نور الدين واحتقاره ، فعاد الرسول وحكى لنور الدين جلية الحال ، فغضب نور الدين وعزم على المسير إلى نصيبين وأخذها من عمه ، فاتّفق أن عمّه مات وملك بعده ابنه فقوي طمعه فمنعه مجاهد الدين فلم يمتنع وتجهز وسار إليها، فلمّا سمع قطب الدين صاحبها سار إليها من سنجار في عسكره ونزل عليها ليمتنع نور الدين عنها فوصل نور الدين وتقدّم إلى البلد، وكان بينهما نهر فجازه بعض امرائه وقاتل من بإزائه ، فلم يثبتوا له ، فعبر جميع العسكر النوري وتمت الهزيمة على قطب الدين ، فصعد هو ونائبه مجاهد الدين برتقش إلى قلعة نصيبين ، وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين إلى حرّان ، وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حرّان وغيرها وهو بدمشق ، وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد نصيبين اليهم ، وأقام نور الدين بنصيبين مالكها، فتضعضع عسكره بكثرة الأمراض ، وعودهم إلى الموصل وموت كثير منهم

ووصل العادل إلى الديار الجزرية ، فحينئذ فارق نور الدين نصيبين وعاد إلى الموصل في شهر رمضان ، فلما فارقها تسلمها قطب الدين .

وممن توفي من أمراء الموصل عز الدين جورديك شمس الدين عبد الله بن إبراهيم ، وفخر الدين عبد الله بن عيسى المهرانيان ، ومجاهد الدين قايماز، وظهير الدين يولق بن بلنكري ، وجمال الدين محاسن وغيرهم ، ولما عاد نور الدين الى الموصل قصد العادل قلعة ماردين ، فحصرها وضيّق على أهلها على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطأ الكافرة

في هذه السنة ملك بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود، وهو ابن اخت غياث

الدين وشهاب الدين صاحبي غزنة وغيرها، وله باميان مدينة بلخ ، وكان صاحبها تركيا اسمه ازيه ، وكان يحمل الخراج كل سنة إلي الخطأ بما وراء النهر فتوفّي هذه السنة، فسار بهاء الدين سام إلى المدينة فملكها وتمكن منها وقطع الحمل إلى الخطأ، وخطب لغياث الدين ، وصارت من جملة بلاد الإِسلام بعد أن كانت في طاعة الكفار.

ذكر انهزام الخطا من الغورية

وفي هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون إلى ناحية خراسان ، فعاثوا في البلاد وأفسدوا ، فلقيهم عسكر غياث الدين الغوري وقاتلهم فانهزم الخطا ، وكان سببُ ذلك أنّ خوارزم شاه تكش كان قد سار إلى بلد الري وهمذان وأصفهان وما بينهما من البلاد، وملكها وتعرض إلى عساكر الخليفة وأظهر طلب السلطنة والخطبة ببغداد، فأرسل الخليفة إلى غياث الدين ملك الغور وغزنة يأمره بقصد بلاد خوارزم شاه ليعود عن قصد العراق ، وكان خوارزم شاه قد عاد إلى خوارزم ، فراسله غياث الدين يقبح له فعله ويتهدده بقصد بلاده وأخذها فأرسل خوارزم إلى الخطا يشكو اليهم من غياث الدين ويقول : إن لم تدركوه بإنفاذ العساكر ، وإلا أخذ غياث الدين بلاده كما أخذ مدينة بلخ ، وقصد بعد ذلك بلادهم ويتعذر عليهم منعه ويعجزون عنه ويضفون عن رده عقا وراء النهر فجهّز ملك الخطا جيشاً كثيفاً وجعل مقدّمهم المعروف بطاينكوا ، وهو كالوزير، فساروا وعبروا جيحون في جمادى الآخرة ، وكان الزمان شتاء ، وكان شهاب الدين الغوري أخو غياث الدين ببلاد الهند والعساكر معه ، وغياث الدين به من النقرس ما يمنعه من الحركة إنما يحمل في محفة، والذي يقود الجيش ويباشر الحروب أخوه شهاب الدين ، فلمّا وصل الخطا إلى جيحون سار خوارزم شاه إلى طوس عازماً على قصد هراة ومحاصرتها ، وعبر الخطا النهر، ووصلوا إلى بلاد الغور مثل كرزيان وشبرقان وغيرهما ، وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيرا لا يحصى ، فاستغاث الناس بغياث الدين فلم يكن عنده من العساكر ما يلقاهم بها ، فراسل الخطا بهاء الدين سام ملك باميان يأمرونه بالإِفراج عن بلخ ، وانه يحمل ما كان من قبله يحمله من المال فلم يجبهم إلى ذلك .

وعظمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا، فانتدب الأمير محمد بن جربك الغوري ، وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين ، وكان شجاعاً ، وكاتب الحسين بن خرميل ، وكان بقلعة كرزيان ، واجتمع معهما الأمير حروش الغوري وساروا بعساكرهم

إلى الخطا،فبيتوهم وكبسوهم ليلاً من عادة الخطا أنهم لا يخرجون من خيامهم ليلاً ولا يفارقونها، فأتاهم هؤلاء الغورية وقاتلوهم وأكثروا القتل في الخطا، وانهزم من سلم منهم من القتل ، وأين ينهزمون ، والعسكر الغوري خلفهم وجيحون بين أيديهم ، وطن الخطا أن غياث الدين قد قصدهم في عساكره ، فلما أصبحوا وعرفوا من قاتلهم وعلموا أن غياث الدين بمكانه قويت قلوبهم ، وثبتوا عامة نهارهم ، فقتل من الفريقين خلق عظيم ، ولحقت المتطوعة بالغوريين ، وأتاهم مدد من غياث الدين وهم في الحرب ، فثبَ المسلمون وعظمت نكايتهم في الكفار، وحمل الأمير حروش على قلب الخطا، وكان شيخاً كبيراً فأصابه جراحة توفي منها، ثم إن محمود بن جربك وابن خرميل حملا في اصحابهما وتنادوا أن لا يرمي أحد بقوس ولا يطعن برمج ، وأخذوا اللنوت وحملوا على الخطا، فهزموهم وألحقوهم بجيحون ، فمن صبر قتل ومن ألقى نفسه في الماء غرق ، ووصل الخبر إلى ملك الخطا فعظم عليه وأرسل إلى خوارزم شاه يقول له : أنت قتلت رجالي وأريد عن كل قتيل عشرة آلاف دينار،،وكان القتلى اثني عشر الفا، وأنفذ إليه من رده إلى خوارزم وألزموه بالحضور عنده فأرسل حينئذ خوارزم شاه إلى غياث الدين يعرفه حاله مع الخطا ويشكو إله ويستعطفه غير مرة، فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة ، وإعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام ، فلم ينفصل بينهما حال .

ذكر ملك خوارزم شاه مدينة بخارا

– لمّا ورد رسول ملك الخطا على خوارزم شاه – بما ذكرناه – اعاد الجواب ان عسكرك إنما قصد انتزاع بلخ ، ولم يأتوا إلى نصرتي ، ولا اجتمعت بهم ولا أمرتهم بالعبور، وإن كنطَ فعلت ذلك فأنا مقيم بالمال المطلوب مني ، ولكن حيث عجزتم انتم عن الفورية عدتم علي بهذا القول وهذا المطلب ، وأما أنا فقد أصلحت الغوريّة ودخلت في طاعتهم ولا طاعة لكم عندي ، فعاد الرسول بالجواب ، فجهّز ملك الخطا جيشاً عظيماً وسيّره إلى خوارزم شاه يخرج إليهم كل لبلة، ويقتل منهم خلقاً عظيماً وأتاه من المتطوّعة خلق كثير، فلم يزل هذا فعله بهم حتى أتى على أكثرهم ، فدخل الباقون إلى بلادهم ، ورحل خوارزم شاه في آثارهم وقصد بخارا ، فنازلها وحصرها ، وامتنع أهلها منه وقاتلوه مع الخطا، حتى أنهم أخذوا كلباً أعور وألبسوه قباء وقلنسوة، وقالوا : هذا خوارزم شاه لأنه كان أعوراً، وطافوا به على السور، ثم ألقوه في منجنيق إلى

العسكر، وقالوا : هذا سلطانكم ، وكان الخوارزميون يسبّونهم ويقولون يا أجناد الكفر أنتم قد ارتددتم عن الإسلام ، فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزم شاه البلد بعد أيام يسيرة عنوا ، وعفا عن أهله وأحسن إليهم وفرق فيهم مالاً كثيراً ، وأقام بها مدة ثم عاد إلى خوارزم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ذي الحجة توفّي ابو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة كاتب الإنشاء بديوان الخليفة، وكان عالماً فاضلًا له كتابة حسنة، وكان رجلًا عاقلًا خيّراً كثير النفع للناس ، وله شعر جيد .

وفيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة ماردين في شهر رمضان وقاتل من بها، وكان صاحبها حسام الدين يولق أرسلان بن أيلغازي بن البي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق كل هؤلاء ملوك ماردين –وقد تقدم من اخبارهم ما يعلم به محلهم – وكان صبياً، والحاكم في بلده ودولته مملوك أبيه النظام يرنقش ، وليس لصاحبه معه حكم البتة في شي من الأمور، ولمّا حصر العادل ماردين ودام عليها سلّم إليه بعض اهلها الربض بمخامرة منهم ،1 فنهب العسكر أهله نهباً قبيحاً، وفعلوا بهم أفعالاً عظيمة لم يسمع بمثلها، فلما تسلم الربض تمكن من حصر القلعة، وقطع الميرة عنها، وبقي عليها إلى أن رحل عنها سنة خمس وتسعين –على ما نذكره إن شاء الله .

وفيها توفي الشيخ أبو علي الحسن بن مسلم بن أبي الحسن القادسي الزاهد المقيم ببغداد والقادسية التي ينسب إليها، قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد،وكان من عباد الله الصالحين العالمين ، ودفن بقريته أبو المجد علي بن أبي الحسن علي بن الناصر بن محمد الفقيه الحنفي مدرّس أصحاب ابي حنيفة ببغداد، وكان من أولاد محمد بن الحنفية ابن امير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الأفضل ديار مصر

في هذه السنة في العشرين من المحرّم توفّي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب ديار مصر، وكان سبب موته أنه خرج الى الصيد، فوصل إلى الفيوم متصيّداً فرأى ذئباً فركض فرسه في طلبه فعثر الفرس ، فسقط عنه في الأرض ولحقته حمى ، فعاد إلى القاهرة مريضاً فبقي ش كذلك إلى أن توفّي ، فلما مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهاركس هو الحاكم في بلده ، فأحضر إنساناً كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبي بكر بن أيوب وأراه العزيز ميتاً وسيّره إلى العادل وهو يحاصر ماردين – كما ذكرناه – ويستدعيه ليملكه البلاد ، فسار القاصد مجدا ، فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الأفضل علي بن صلاح الدين فقال له : قل لصاحبك إن أخاه العزيز توفّي وليس في البلاد من يمنعها، فليسر اليها فليس دونها مانع ، وكان الأفضل محبوباً الى الناس يريدونه ، فلم يلتفت الأفضل إلى هذا القول وإذ قد وصله رسل الأمراء من مصر يدعونه اليهم ليملكوه ، وكان السبب في ذلك أن الأمير سيف الدين يازكج مقدم الأسَدِيّة والفرقة الأسَدِية والأمراء الأكراد يريدونه ويميلون اليه ، وكان المماليك الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه ، فاجتمع سيف الدين مقدم الأسدية وفخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك ، فقال فخر الدين : نولي ابن الملك العزيز، فقال سيف الدين : إنه طفل وهذه البلاد ثغر الإِسلام ولا بد من قيم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها، والرأي أننا نجعل الملك في هذا الطفل الصغير، ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يُدبره إلى أن يَكْبُر، فإن العساكر لا تُطيع غيرهم ولا تنقاد لأمير، فاتفقا على هذا فقال جهاركس : فمن يتولى هذا فأشار يازكج بغير الأفضل ، فجرى بينه وبين جهاركس منازعة لئلا يتهم وينفر جهاركس عنه ، فامتنع

من ولايته ، فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحداً بعد آخر إلى أن ذكر آخرهم الأفضل فقال جهاركس : هو بعيد عنا، وكان بصرخد مقيماً فيها من حين أخذت منه دمشق ، فقال يازكج : ترسل إليه من يطلبه مجدّاً ، فأخذ جهاركس يغالطه فقال يازكج : نمضي الى القاضي الفاضل ونأخذ رأيه ، فاتفقا على ذلك وأرسل يازكج يعرفه ذلك ويشير بتمليك الأفضل ،فلما اجتمعا عنده وعرفاه صورة الحال أشار بالأفضل ، فأرسل يازكج في الحال القصاد وراءه ، فسارعن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكراً في تسعة عشر نفساً لأن البلاد كانت للعادل وبضبط نوابه الطرق لئلا يجوز إلى مصر ليجيء العادل ويملكها فلما قارب الأفضل القدس وقد عدل عن الطريق المؤدّي إليه لقيه فارسان قد أرسلا إليه من القدس ، فأخبراه أن من بالقدس قد صار في طاعته ، وجدّ في السير فوصل !لى بلبيس خامس ربيع الأول ، ولقيه إخوته وجماعة الأمراء المصرية ، وجميع الأعيان ، فاتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعوداً صنع له طعاماً وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاماً فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه أنه يبدأ به ، فظن جهاركس أنه فعل هذا انحرافاً عنه وسؤ اعتقاد فيه ، فتغيرت نيّته وعزم على الهرب فحضر عند الأفضل ، وقال إن طائفة من العرب قد اقتتلوا ولئن لم نمض إليهم نصلح بينهم يؤدي ذلك إلى فساد، فأذن له الأفضل في المضي إليهم ، ففارقه وسار مُجداً حتى وصل إلى البيت المقدس ودخله وتغلب كليه ، ولِحقه جماعة من الناصرية منهم قراجة الزرمكش وسراسنقر، وأحضروا عندهم ميمونا القصري صاحب نابلس ، وهو أيضاً من المماليك الناصرية ، فقويت شوكتهم به واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل ، وأرسلوا إلى الملك العادل ، وهو على ماردين يطلبونه اليهم ليدخلوا معه الى مصر ليملكوها، فلم يسر إليهم لأنه كانت أطماعه قد قويت في أخذ ماردين ، وقد عجز من بها عن حفظها وأنه يأخذها والذي يريدونه لا يفوته ، وأما الأفضل فإنه دخل إلى القاهرة سابع ربيع الأول وسمع بهرب جهاركس ، فأهمه ذلك وتردَّدت الرسل بينه وبينهم ليعودوا إليه ، فلم يزدادوا إلا بعداً، ولحق بهم جماعة من الناصرية أيضاً فاستوحش الأفضل من الباقين ، فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك فطيس والبكى الفارس ، وكل هؤلاء بطل مشهور ومقدّم مذكور سوى من ليس مثلهم في التقدّم وعلو القدر، وأقام الأفضل بالقاهرة، وأصلح الأمور، وقرّر القواعد والمرجع في جميع الأمور إلى سيف الدين يازكج .

ذكر حصر الأفضل مدينة دمشق وعوده عنها

لما ملك الأفضل مصرَ واستقر بها ومعه ابن أخيه الملك العزيز اسم الملك له لصغره واجتمعت الكلمة على الأفضل بها وصل إليه رسول أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، ورسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج إلى دمشق ، واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال ، فبرز من مصر منتصف جمادى الأولى من السنة على عزم المسير إلى دمشق ، وأقام بظاهر القاهرة إلى ثالث رجب ورحل فيه وتعوق في مسيره ، ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق لكنه تأخر، فوصل إلى دمشق ثالث عشر شعبان ، فنزل عند جسر الخشب على فرسخ ونصف من دمشق ، وكان العادل قد أرسلِ إليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الأفضل لهم ، ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمداً في جميع العساكر على حصارها، وسار جريدة فجدّ في السير فسبق الأفضل فدخل دمشق قبل الأفضل بيومين ، وأما الأفضل فإنه تقدّم إلى دمشق من الغدر، وهو رابع عشر شعبان ، ودخل ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان إلى دمشق من باب السلامة، وسبب دخولهم ان قوماً من أجناده ممن بيوتهم مجاورة الباب اجتمعوا بالأمير مجد الدين أخي الفقيه عيسى الهكاري ، وتحدثوا معه في أن يقصد هو والعسكر باب السلامة ليفتحوه لهم ، فأراد مجدّ الدين أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الأفضل ولا أخذ معه أحداً من الأمراء بل سار وحده ومعه نحو خمسين فارساً من أصحابه ، ففُتح له الباب فدخله هو ومن معه ، فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الأفضل واسستسلم من به من الجند ونزلوا عن الأسوار، وبلغ الخبر إلى الملك العادل فكاد يستسلم وتماسك ، وأما الذين دخلوا البلد فإنهم وصلوا إلى البريد، فلما رأى عسكر العادل بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم وثبوا بهم وأخرجوهم منه ، وكان الأفضل قد نصب خيمة بالميدان الأخضر، وقارب عسكره الباب الحديد، وهو من أبواب القلعة، فقدَّر اللّه تعالى أن أشير على الأفضل بالانتقال إلى ميدان الحصى ، ففعل ذلك ، فقويت نبوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصري ، ثم إن الأمراء الأكراد منهم تحالفوا ، فصاروا يداً واحدة، ويغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا أحدهم ، فظن الأفضل وباقي الأسدية أنهم فعلوا بقاعدة بينهم وبين الدمشقيين ، فرحلوا من موضعهم وتأخروا في العشرين من

شعبان ، ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الأفضل الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب ثاني عشر شهر رمضان ، وأراد الزحف الى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكراً بأخيه وحسداً له ولم يشعر أخوه الأفضل بذلك ، وأما الملك العادل فإنه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الإمداد إلى الأفضل عظم عليه ، فأرسل إلى المماليك الناصرية بالبيت المقدس يستدعيهم إليه فساروا سلخ شعبان ، فوصل خبرهم إلى الأفضل ، فسيّر أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الأمراء إلى طريقهم ليمنعوهم فسلكوا غير طريقهم ، فجاء أولئك ودخلوا دمشق خامس رمضان فقوي العادل بهم قوَّة عظيمة، وأيس الأفضل ومن معه من دمشق وخرج عسكر دمشق في شوال فكبسوا العسكر المصري فوجدوهم قد حذروهم ، فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوة وضعف ،وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمّد، وكان قد رحل عن ماردين على ما نذكره إن شاء الله تعالى – وهو بحران ، فاستدعاه إليه بعسكره ، فسار على طريق البر، فدخل إلى دمشق ثاني عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة، فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق إلى ذيل جبل الكسوة سابع عشر صفر، واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء، فرحلوا إلى رأس الماء ، وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام ، واتفقوا على أن يعود كل منهم الى بلده ، فعاد الظاهر صاحب حلب وأسد الدين صاحب حمص إلى بلادهما، وعاد الأفضل الى مصر، فكان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى .

ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد

في هذه السنة فى ثامن عشر ربيع الاخر، وقيل جمادى الأولى توفّي أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والأندلس بمدينة سلا، وكان قد سار إليها من مراكش ، وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا وسماها المهدية من أحسن البلاد وأنزهها ، فسار إليها يشاهدها فتوفّي بها ، وكانت ولايته خمس عشرة سنة ، وكان ذا جهاد للعدو ودين حسن وسيرة، وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية ، وأعرض عن مذهب مالك ، فعظم أمر الظاهرية في أيامه ، وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية منسوبون إلى ابن محمد بن حزم رئيس الظاهرية إلا أنهم مغمورون بالمالكية ،

ففي أيامه طهروا وانتشروا ، ثم في آخر أيامه استقض الشافعية على بعض البلاد ومال إليهم

.

ذكر عصيان أهل المهدية على يعقوب وطاعتها لولده محمد

كان أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب لما عاد من إفريقية – كما ذكرناه – سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، استعمل أبا سعيد عثمان ، وأبا علي يونس بن عمر اينتي وهما وأبوهما من أعيان الدولة ، فولّى عثمان مدينة تونس ، وولّى أخاه المهدية ، وجعل قائد الجيش بالمهدية محمد بن عبد الكريم ، وهو شجاع مشهور، فعظمت نكايته في العرب فلم يبق منهم إلا من يخافه ، فاتفق انه أتاه الخبر بأن طائفة من عوف نازلين بمكان ، فخرج إليهم وعدل عنهم حتى جازهم ، ثم اقبل عائداً يطلبهم وأتاهم الخبر بخروجه إليهم ، فهربوا من بين يديه فلقيهم أمامهم ، فهربوا وتركوا المال والعيال من غير قتال ، فأخذ الجميع ورجع إلى المهدية وسلم العيال إلى الوالي ، وأخذ من الأسلاب والغنيمة ما شاء، وسلم الباقي إلى الوالي وإلى الجند، ثم إن العرب من بني عوف قصدوا أبا سعيد بن عمر اينتي ، فوجدوا وصاروا من حزب الموحدين ، واستجاروا به في رد عيالهم وأموالهم فأحضر محمد بن عبد الكريم وأمره بإعادة ما أخذ لهم من النعم ، فقال : أخذه الجند ولا اقدر على رده ، فأغلظ له في القول ، وأراد أن يبطش به ، فاستمهله الى ان يرجع الى المهدية ، ويسترد من الجند ما يجده عندهم وما عدم منه غرم العوض عنه من ماله ، فأمهله فعاد الى المهدية وهو خائف ، فلما وصلها جمع أصحابه وأعلمهم ما كان من أبي سعيد وحالفهم على موافقته ، فحلفوا له فقبض على أبي علي يونس ، وتغلب على المهدية وملكها، فأرسل اليه ابو سعيد في معنى اطلاق أخيه يونس ، فأطلقه على اثني عشر ألف دينار، فلما أرسلها إليه أبو سعيد فرقها في الجند وأطلق يونس وجمع أبو سعيد العساكر وأراد قصد محاصرته ، فأرسل محمد بن عبد الكريم إلى علي بن اسحق الملثم فحالفه واعتضد به ، فامتنع أبو سعيد من قصده ، ومات يعقوب ، وولي ابنه محمد فسيّر عسكراً مع عمه في البحر، وعسكراً آخر في البرمع ابن عمه الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن ، فلما وصل عسكر البحر إلى بجاية وعسكر السير إلى قسنطينة الهوى هرب الملثم ومن معه من العرب من بلاد افريقية الى الصحراء ، ووصل الأسطول إلى المهدية، فشكا محمد بن عبد الكريم ما لقي من ابي

سعيد، وقال : أنا على طاعة أمير المؤمنين محمد، ولا أسلمها إلى أبي سعيد وإنما أسلمها الى من يرسله أمير المؤمنين ، فأرسل محمد من يتسلمها منه وعاد إلى الطاعة .

ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين

في هذه السنة زال الحصار عن ماردين ورحل عسكر الملك العادل عنها مع ولده الملك الكامل ، وسبب ذلك أن الملك العادل لما حصر ماردين عظم ذلك على نور الدين صاحب الموصل وغيره من ملوك ديار بكر والجزيرة، وخافوا إن ملكها لا يبقي عليهم إلا أن العجز عن منعه حملهم على طاعته ، فلما توفي العزيز صاحب مصر وملك الأفضل مصر– كما ذكرناه – وبينه وبين العادل اختلاف ، فأرسل أخذ عسكر مصر من عنده ، وأرسل إلى نور الدين صاحب الموصل وغيره من الملوك يدعوهم إلى موافقته ، فأجابوه إلى ذلك ، فلما رحل الملك العادل عن ماردين إلى دمشق – كما ذكرناه – برز نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عنها ثاني شعبان ، وسار إلى دنيسر، فنزل عليها ووافقه ابن عمّه قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود صاحب سنجار وابن عمه الآخر سنجر شاه بن غازي بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر، فاجتمعوا كلهم بدُنَيْسِر إلى أن عيّدوا عيد الفطر، ثم ساروا عنها سادس شوال ونزلوا بحرزم ، وتقدم العسكر إلى تحت الجبل ليرتادوا موضعاً للنزِول ، وكان أهل ماردين قد عدمت الأقوات عندهم ، وكثرت الأمراض فيهم حتى إن كثيراَ منهم كان لا يطيق القيام ، فلما رأى النظام ، وهو الحاكم في دولة صاحبها ذلك ارسل إلى ابن العادل في تسليم القلعة إليه إلى أجل معلوم ذكره على شرط أن يتركهم يدخل اليهم من الميرة ما يقوتهم حسب ، فأجابهم إلى ذلك ، وتحالفوا عليه ورفعوا أعلامهم إلى رأس القلعة ، وجعل ولد العادل بباب القلعة أميرا لا يترك يدخلها من الأطعمة إلا ما يكفيهم يوما بيوم ، فأعطى من بالقلعة ذلك الأمير شيئاً ، فمكّنهم من إدخال الذخائر الكثيرة فبينما هم كذلك إذ أتاهم خبر وصول نور الدين صاحب الموصل ، فقويت نفوسهم وعزموا على الامتناع ، فلمّا تقدّم عسكره إلى ذيل جبل ماردين قدر الله تعالى أن الملك الكامل بن العادل نزل بعسكره من ربض ماردين إِلى لقاء نور الدين وقتاله ، ولو اقاموا بالربض لم يمكن نور الدين ولا غيره الصعود اليهم ولا ازالتهم ، لكن نزلوا ليقضي الله أمراً كان مفعولا، فلما أصحروا من

الجبل اقتتلوا ، وكان من عجيب الاتفاق ان قطب الدين صاحب سنجار كان قد واعد العسكر العادليّ أن ينهزم إذا التقوا ، ولم يعلم بذلك أحداً من العسكر، فقدر اللّه تعالى أنه لما نزل العسكر العادلي ، واصطفت العساكر للقتال الجأت قطب الدين الضرورة بالزحمة إلى أن وقف في سفح بجبل ماردين ليس اليه طريق للعسكر العادلي ، ولا يرى الحرب الواقعة بينهم وبين نور الدين ففاته ما أراده من الانهزام ، فلمّا التقى العسكران واقتتلوا حمل ذلك اليوم نور الدين بنفسه واصطلى الحرب الناس أنفسهم بين يديه ، فانهزم العسكر العادلي وصدوا في الجبل الى الربض وأسر منهم كثير، فحملوا إلى بين يدي نور الدين ، فأحسن اليهم ووعدهم الإطلاق إذا انفصلوا ، ولم يظن أن الملك الكامل ومن معه يرحلون عن ماردين سريعا، فجاءهم أمر لم يكن في الحساب ، فإن الملك الكامل لما صعد إلى الربض رأى أهل القلعة قد نزلوا إلى الذين جعلوهم بالربض من العسكر، فقاتلوهم ونالوا منهم ونهبوا، فألقى اللّه الرعب في قلوب الجميع ، فأعملوا رأيهم على مفارقة الربض ليلا فرحلوا ليلة الاثنين سابع شوال ، وتركوا كثيرا من أثقالهم ورحالهم ، وما اعدوه فأخذه أهل القلعة ، ولو ثبت العسكر العادلي بمكانه لم يمكن أحداً أن يقرب منهم ، ولما رحلوا نزل صاحب ماردين حسام الدين يولق بن ايلغازي إلى نور الدين ، ثم عاد إلى حصنه وعاد أتابك إلى دنيسر، ورحل عنها إلى رأس عين على عزم قصد حرّان وحصرها، فأتاه رسول من الملك الظاهر يطلب الخطبة والسكة وغير ذلك ، فتغيرت نية نور الدين وفتر عزمه عن حصرها، فعزم على العود إلى الموصل ، فهو يقدم إلى العود رجلًا ويؤخر أخرى إذ اصابه مرض ، فتحقق عزم العود الى الموصل ، فعاد إليها وأرسل رسولا إلى الملك الأفضل والملك الظاهر يعتذر عن عوده بمرضه ، فوصل الرسول ثاني ذي الحجة إليهم ، وهم على دمشق وكان عود نور الدين من سعادة الملك العادل ، فإنه كان وكل من عنده ينتظرون ما يجيء من أخباره ، فإن من بحران استسلموا فقذر اللّه تعالى أنه عاد، فلما عاد جاء الملك الكامل إلى حران ، وكان قد سار عن ماردين إلى ميافارقين ، فلما رجع نور الدين سار الكامل !الى حران ، وسار إلى أبيه بدمشق على ما ذكرناه فازداد به قوة، والأفضل ومن معه ضعفا.

ذكر الفتنة بفيروز وزكوه من خراسان

في هذه السنة كانت فتنة عظيمة بعسكر غياث الدين ملك الغور وغزنة، وهو بفيروزكوه عمّت الرعية والملوك والأمراء ، وسببها أن الفخر محمد بن عمر بن الحسين الرازي – الِإمام المشهور الفقيه الشافعي – كان قدم إلى غياث الدين مفارقاً لبهاء الدين سام صاحب باميان ، وهو ابن أخت غياث الدين ، فأكرمه غياث الدين واحترمه وبالغ في إكرامه ، وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع ، فقصده الفقهاء من البلاد فعظم ذلك س الكرامية، وهم كثيرون بهراة، وأما الغورية فكلهم كرامية وكرهوه ، وكان أشذ الناس عليه الملك ضياء الدين ، وهو ابن عم غياث الدين وزوج ابنته ، فاتّفق أن حضر الفقهاء من الكرامية والحنفية والشافعية عند غياث الدين بفيروزكوه للمناظرة، وحضر فخر الدين الرازي والقاضي مجد الدين عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة، وهو من الكرامية الهيصمية ، وله عندهم محل كبير لزهده وعلمه وبيته ، فتكلم الرازي فاعترض عليه ابن القدوة، وطال الكلام فقام غياث الدين فاستطال عليه الفخر وسبه وشتمه ، وبالغ في أذاه وابن القدوة لا يزيد على أن يقول لا يفعل مولانا لا واخذك الله ، استغفر الله ، فانفصلوا على هذا وقام ضياء الدين في هذه الحادثة وشكر إلى غياث الدين وذم الفخر، ونسبه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة فلم يصغ غياث الدين إليه ، فلما كان الغد وعظ ابن عمر المجد بن القدوة بالجامع ، فلما صعد المنبر قال بعد أن حمد اللّه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم لا إله إلا اللّه ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين

، أيّها الناس إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم ، وأما علم ارسطاطاليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي فلا نعلمها ، فلأي حال يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإِسلام يذبّ عن دين اللّه وعن سنة نبيه ، وبكى وضج الناس وبكى الكرامية واستغاثوا وأعابهم من يؤثر بعد الفخر الرازي عن السلطان ، وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة، وكادوا يقتتلون ويجري ما يهلك فيه خلق كثير، فبلغ ذلك السلطان ، فأرسل جماعة من عنده إلى الناس ، وسكنهم ووعدهم بإخراج الفخر من عندهم ، وتقدّم إليه بالعود إلى هراة فعاد اليها .

ذكر مسير خوارزم شاه إلى الري

في هذه السنة في ربيع الأول سار خوارزم شاه علاء الدين تكش إلى الري وغيرها

من بلادْ الجبل لأنه بلغه أن نائبه بها مياجق قد تغيّر عن طاعته ، فسار إليه فخافه مياجق فجعل يفر من بين يديه وخوارزم شاه في طلبه ، يدعوه إلى الحضور عنده ، وهو يمتنع فاستأمن من أكثر أصحابه إلى خوارزم شاه ، وهرب هو فحصل بقلعة من أعمال مازندران ، فامتنع بها ، فسارت العساكر في طلبه ، فأخذ منها ، وأحضر بين يدي خوارزم شاه ، فأمر بحبسه ، بشفاعة أخيه أقجة، وسيرت الخلع من الخليفة لخوارزم شاه ولولده قطب الدين محمد وتقليد ما بيده من البلاد ، فلبس الخلعة، واشتغل بقتال الملاحدة، فافتتح قلعة على باب قزوين تسمى أرسلان كشاه ، وانتقل الى حصار الموت ، فقتل عليها صدر الدين محمد بن الوزان رئيس الشافعية بالري ، وكان قد تقدّم عنده تقدما عظيما قتله الملاحدة ، وعاد خوارزم شاه إلى خوارزم ، فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن علي فقتلوه في جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ، فأمر تكش ولده قطب الدين بقصد الملاحدة، فقصد قلعة ترشيش ، وهي من قلاعهم فحصرها ، فأذعنوا له بالطاعة وصالحوه على مائة ألف دينار ففارقها ، وإنما صالحهم لأنه بلغه خبر مرض أبيه ، وكانوا يراسلونه بالصلح فلا يفعل ، فلما سمع بمرض أبيه لم يرحل حتى صالحهم على المال المذكور والطاعة ورحل .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الأول توفي مجاهد الدين قايماز– رحمه اللّه – بقلعة الموصل ، وهو الحاكم في دولة نور الدين والمرجوع إليه فيها، وكان ابتداء ولايته قلعة الموصل في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وولّي إربل سنة تسع

وخمسين وخمسمائة، فلمّا مات زين الدين علي كوكج سنة ثلاث وستين بقي هو الحاكم فيها ومعه من يختاره من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه حكم ، وكان عاقلاً أديباً خبيراً فاضلا يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة ، ويحفظ من التاريخ والأشعار والحكايات شيئاً كثيراً ، وكان كثير الصوم يصوم من كل سنة نحو أربعة أشهر، وله أوراد كثيرة حسنة كل ليلة، ويكثر الصدقة وكان له فراسة حسنة فيمن يستحق الصدقة، ويعرف الفقير المستحق ويبرّهم وبنى عدة جوامع منها الجامع الذي بظاهر الموصل بباب الجسر، وبنى الربط والمدارس والخانات في الطرق ، وله من المعروف شيء كثير– رحمه الله –، فلقد كان من محاسن الدنيا . .

وفيها فارق غياث الدين صاحب غزنة وبعض خراسان مذهب الكرامية – وصار شافعي المذهب ، وكان سبب ذلك انه كان عنده إنسان يعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشعر. بالفارسيّة متفنّنا في كثير من العلوم ، فأوصل إلى غياث الدين الشيخ وجيه الدين أبا الفتح محمد بن محمود المرورروذي الفقيه الشافعي ، فوضح له مذهب الشافعي ، وبيَّن له فساد مذهب الكراميةِ، فصار شافعياً وبنى المدارس للشافعية ، وبنى بغزنة مسجداً لهم أيضاً ، وأكثر مراعاتهم ، فسعى الكرامية في أذى وجيه الدين ، فلم يقدرهم الله تعالى على ذلك ، وقيل إن غياث الدين وأخاه شهاب الدين لما ملكا في خراسان قيل لهما : إن الناس في جميع البلاد يزرون على الكرامية ويحتقرونهم ، والرأي أن تفارقا مذاهبهم فصارا شافعيين ، وقيل : إن شهاب الدين كان حنفياً واللّه أعلم.

وفي هذه السنة توفّي أبو القاسم يحيى بن علي بن فضلان الفقيه الشافعي ، وكان إماما فاضلاً، ودرس ببغداد، وكان من أعيان أصحاب محمد بن يحيى نجي النيسابوري .

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك العادل الديار المصرية

قد ذكرنا سنة خمس وتسعين حصر الأفضل والظاهر ولدي صلاح الدين دمشق ورحيلهما إلى رأس الماء عليِ عزم المقام بحوران إلى أن يخرج الشتاء، فلما أقاموا برأس الماء وجد العسكر برداَ شديداً لأن البرد في ذلك المكان في الصيف موجود، فكيف في الشتاء؟ فتغير العزم على المقام واتفقوا على أن يعود كل إنسان منهم إلى بلده ، ويعودوا إلى الاجتماع فتفرقوا تاسع ربيع الأول ، فعاد الظاهر وصاحب حمص إلى بلادهما، وسار الأفضل إلى مصر، فوصل بلبيس فأقام بها ، ووصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصداً مصر،ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوه أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو المدبر للملك إلى أن يكبر، فساروا على هذا ، وكان عسكره بمصر قد تفرّق عن الأفضل من الخشبي ، فسار كل منهم إلى أقطاعه ليربعوا دوابهم ، فرام الأفضل جمعهم من أطراف البلاد، فأعجله الأمر عن ذلك ولم يجتمع منهم إلا طائفة يسيرة ممن قرب أقطاعه ، ووصل العادل ، فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرّب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة، وأشار غيرهم بالتقدّم إلى اطراف البلاد، ففعل ذلك ، فسار عن بلبيس ونزل موضعاً يقال له : السائح في طرف البلاد والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر، فانهزم الأفضل ودخل القاهرة ليلاً . وفي تلك الليلة توفّي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني كاتب الإنشاء لصلاح الدين ووزيره ، فحضر الأفضل الصلاة عليه ، وسار العادل فنزل على القاهرة وحصرها ، فجمع الأفضل من عنده

من الأمراء واستشارهم ، فرأى منهم تخاذلا، فأرسل رسولًا إلى عمه في الصلح وتسليم البلاد إليه وأخذ العوض عنها، وطلب دمشق ، فلم يجبه ، فنزل عنها إلى حران والرها فلم يجبه ، فنزل إلى ميافارقين وحاني (1) وجبل جور(2) فأجابه إلى

(ا) حانى : مدينة معروفة بديار بكر.

(2) جبل جور: كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى أرمينية، اهلها نصارى أرمن ،، وفيها قلاع وقرى.

ذلك وتحالفوا عليه وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر، واجتمع بالعادل ، وسار إلى صَرخَد(1) ودخل العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الأخر، ولما وصل الأفضل إلى صرخد أرسل من تسلم ميافارقين وحاني وجبل جور، فامتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليم ميافارقين ، وسلم ما عداها ، فتردّدت الرسل بين الأفضل والعادل في ذلك والعادل يزعم أن ابنه عصاه ، فأمسك عن المراسلة في ذلك لعلمه أن هذا فعل بأمر العادل ، ولما ثبت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز في شوال من السنة، وخطب لنفسه وحاقق الجند فى اقطاعاتهم ، واعترضهم في أصحابهم ، ومن عليهم من العسكر المقرر، فتغيرت لذلك نياتهم ، فكان ما نذكره سنة سبع وتسعين إن شاء الله .

ذكر وفاة خوارزم شاه

فى هذه السنة في العشرين من رمضان توفّي خوارزم شاه تكش بن أرسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان والريّ وغيرها من البلاد الجباليّة بشهرستانة بين نيسابور وخوارزم ، وكان قد سار من خوارزم الى خراسان ، وكان به خوانيق ، فأشار عليه الأطباء بترك ادِكة، فامتنع وسار، فلمّا بلغ شهرستانة اشتد مرضه ومات ، ولما اشتّد مرضه أرسلوا إلى ابنه قطب الدين محمد يستدعونه ويعرفونه شدّة مرض أبيه ، فسار إليهم وقد مات أبوه فولي الملك بعده ، ولقب علاء الدين لقب أبيه ، وكان لقبه قطب الدين وأمر فحمل أبوه ودفن بخوارزم في تربة عملها في مدرسة بناها كبيرة عظيمة، وكان

عادلاً حسن السيرة له معرفة حسنة، وعلم يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة، ويعرف الأصول ، وكان ولده علي شاه بأصفهان فأرسل إليه أخوه خوارزم شاه محمد يستدعيه ، فسار إليه فنهب أهل أصفهان خزانته ورحله ، فليا وصل إلى أخيه ولاه حرب خراسان والتقدم على جندها وسلم إليه نيسابور ، وكان هندوخان ملك شاه بن خوارزم شاه تكش يخاف عمه محمدا فهرب منه ونهب كثيراً من خزائن جده تكش لما مات وكان معه وسار إلى مرو، ولما سمع غياث الدين ملك غزنة وفاة خوارزم شاه أمر أن لا تضرب نوبته ثلاثة أيام ، وجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة والمحاربة فعل

(ا) صرخدْ : بالفتح ثم السكون ، بلد ملاصق لبلاد حوران من اعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة ، ينسب إليها الخمر.

ذلك عقلا منه ومروءة، ثم ان هندوخان جمع جمعا كثيراً بخراسان ، فسيَّر إليه عمّه خوارزم شاه جيشاً مقدمهم جقر التركي ، فلمّا سمع هندوخان بمسيرهم هرب عن خراسان ، وسار إلى غياث لم لدين يستنجده على عقه فأكرم لقاءه وإنزاله وأقطعه ووعده النصرة ، فأقام عنده ودخل جقر مدينة مرو، وبها والدة هندوخان وأولاده ، فاستظهر عليهم وأعلم صاحبه فأمره بإرسالهم إلى خوارزم مكرمين ، فلمّا سمع غياث الدين ذلك أرسل إلى محمد بن جربك صاحب الطالقان يأمره أن يرسل إلى جقر يتهدده ، ففعل وسار من الطالقان ، فأخذ مرو الروذ والخمس قرى، وتُسَقى بالفارسية بنج ده وأرسل إلى جقر يأمره بإقامة الخطبة بمرو لغياث الدين أو يفارق البلد ، فأعاد الجواب يتهدَّد ابن جربك ويتوعده ، وكتب إليه سرّاً يسأله أن يأخذ له أماناً من غياث الدين ليحضر خدمته ، فكتب الى غياث الدين بذلك ، فلما قرأ كتابه علم أنّ خوارزم شاه ليس له قوّة فلهذا طلب جقر الانحياز إليه ، فقوي طمعه في البلاد، وكتب إلى أخيه شهاب الدين يأمره بالخروج إلى خراسان ليتفقا على أخذ بلاد خوارزم شاه محمد .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في جمادى الآخرة وثب الملاحدة الِإسماعيلية على نظام الملك مسعود بن علي وزير خوارزم شاه تكش فقتلوه ، وكان صالحاً كثير الخير حسن السيرة شافعي المذهب بنى للشافعية بمرو جامعاً مشرفاً على جامع الحنفية، فتعصب شيخ الِإسلام ، وهو مقدم الحنابلة بها فيهم والرياسة ، وجمع الأوباش فأحرقه ، فأنفذ خوارزم شاه ،

فأحضر شيخ الإِسلام وجماعة ممن سعى في ذلك ،فأغرمهم مالاً كثيراً .وبنى الوزير أيضاً مدرسة عظيمة بخوارزم وجامعا، وجعل فيها خزانة كتب ، وله آثار حسنة بخراسان باقية، ولما مات خلف ولداً صغيراً فاستوزره خوارزم شاه رعاية لحق أبيه ، فأشير عليه أن يستعفي ، فأرسل يقول : إنني صبي ، لا أصلح لهذا المنصب الجليل ، فيولي السلطان فيه من يصلح له إلى أن أكبر، فإن كنت أصلح فأنا المملوك ، فقال خوارزم شاه ، لست اعفيك ، وأنا وزيرك فكن مراجعي في الأمور فإنه لا يقف منها شيء فاستحسن الناس هذا، ثم إن الصبي لم تطل أيامه فتوفَى قبل خوارزم شاه بيسير. وفي هذه السنة في ربيع الأول توفّي شيخنا أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب

ابن كليب الحراني المقيم ببغداد، وله ست وتسعون سنة وشهران ، وكان عالي الإِسناد في الحديث ، وكان ثقة صحيح السماع .

وفي ربيع الآخر منها توفّي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب لم يكن في زمانه أحسن كتابة منه ، ودفن بظاهر مصر بالقرافة ، وكان ديّناً كثير الصدقة والعبادة ، وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسارى ، وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان ، وكان السلطان صرح الدين يعظمه ويحترمه ويكرمه ويرجع إلى قوله رحمهما الله.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الأفضل مدينة دمشق وعودهما عنها

قد ذكرنا قبل ملك العادل ديار مصر وقطعه خطبة الملك المنصور ولد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأنه لما فعل ذلك لم يرضه الأمراء المصريون ، وخبثت نياتهم في طاعته ، فراسلوا أخويه الظاهر بحلب والأفضل بصرخد ، وتكرّرت المكاتبات والمراسلات بينهم يدعونهما إلى قصد دمشق وحصرها ليخرج الملك العادل اليهم ، فإذا خرج إليهم من مصر أسلموه ، وصاروا معهما ، فتملكا البلاد وكثر ذلك حتى فشا الخبر واتصل بالملك العادل ، وانضاف إلى ذلك أن النيل لم يزد بمصر الزيادة التي تركب الأرض ليزرع الناص ، فكثر الغلاء ، فضعفت قوة الجند، وكان فخر الدين جهاركس قد فارق مصر إلى الشام هو وجماعة من المماليك الناصرية لحصار بانياس ليأخذها لنفسه بأمر العادل ، وكانت لأمير كبير تركي اسمه بشارة قد اتهمه العادل ، فأمر جهاركس بذلك ، وكان أمير من أمراء العادل يعرف بعزّ الدين اسامة قد حجّ هذه السنة ، فلمّا عاد من الحج ، وقارب صرخد نزل الملك الأفضل فلقيه وأكرمه ودعاه إلى نفسه ، فأجابه وحلف له وعرفه الأفضل جلية الحال ، وكان أسامة من بطانة العادل ، وإنما حلف لينكشف له الأمر، فلمّا فارق الأفضل أرسل إلى العادل ، وهو بمصر يعرفه الخبر جميعه ، فأرسل إلى ولده الذي بدمشق يأمره بحصر الأفضل بصرخد، وكتب إلى إياس جركس وميمون القصرى صاحب بلبيس وغيرهما من الناصرية يم مرهم بالاجتماع مع ولده على حصر الأفضل ، وسمع الأفضل الخبر،

فسار إلى أخيه الظاهر بحلب مستهلّ جمادى الأولى من السنة ، ووصل إلى حلب عاشر الشهر.

وكان الظاهر قد أرسل أميراً كبيراً من أمرائه إلى عمّه العادل ، فمنعه العادل من الوصول إليه وأمره بأن يكتب رسالته ، فلم يفعل وعاد لوقته ، فتحرك الظاهر لذلك وجمع

عسكره ، وقصد منبج فملكها السادس والعشرين من رجب وسار إلى قلعة نجم وحصرها فتسلمها سلخ رجب ، وأما الملك المعظّم عيسى بن العادل المقيم بدمشق ، فإنه سار إلى بصرى وأرسل إلى جهاركس ومن معه ، وهم على بانياس يحصرونها يدعوهم إليه ، فلم يجيبوه إلى ذلك بل غالطوه ، فلما طال مقامه على بصرى عاد الى دمشق ، وأرسل الأمير أسامة إليهم يدعوهم إلى مساعدته ، فاتّفق أنه جرى بينه وبين البكّاء الفارس بعض المماليك الكبار الناصرية منافرة أغلظ له البكاء القول ، وتعدى إلى الفعل باليد، وثار العسكر جميعه على أسامة ، فاستذم بميمون فأمنه وأعاده إلى دمشق ، واجتمعوا كلهم عند الملك الظافر خضر بن صلاح الدين ، وأنزلوه من صرخد وأرسلوا إلى الملك الظاهر والأفضل يحثونهما على الوصول إليهم ، والملك الظاهر يتربص ويتعوّق ، فوصل من منبج إلى حماة في عشرين يوما، وأقام على حماة يحصرها وبها صاحبها ناصر الدين بن تقي الدين إلى تاسع عشر رمضان ، فاصطلحا وحمل له ابن تقي الدين ثلاثين ألف دينار صوريّة ، وساروا عنها الى حمص ، وسار منها إلى دمشق على طريق بعلبك ، فنزلوا عليها عند مسجد القدم ، فلما نزلوا على دمشق أتاهم المماليك الناصرية مع الملك الظافر خضر بن صلاح الدين ، وكانت القاعدة استقرت بين الظاهر وأخيه الأفضل أنهم إذا ملكوا دمشق تكون بيد الأفضل ، ويسيرون إلى مصر فإذا ملكوها تسلم الظاهر دمشق ، فيبقى الشام جميعه له ، وتبقى مصر للأفضل . وسلّم الأفضل صرخد إلى زين الدين قراجة مملوك والده ليحضر في خدمته ، وأنزل والدته وأهله

منها وسيّرهم إلى حمص فأقاموا عند أسد الدين شيركوه صاحبها، وكان الملك العادل قد سار من مصر إلى الشام ، فنزل على مدينة نابلس ، وسيَّر جمعاً من العسكر إلى دمشق ليحفظها، فوصلوا قبل وصول الظاهر والأفضل ، وحضر فخر الدين جهاركس وغيره من الناصرية ، فوصلوا قبل وصول الظاهر والأفضل ، وزحفوا إلى دمشق وقاتلوها رابع عشر ذي القعدة ، واشتدَ القتال عليها فالتصق الرجال بالسور، فأدركهم الليل فعادوا وقد قوي الطمع في أخذها ثم زحفوا إليها مرة ثانية وثالثة، فلم يبق إلا ملكها لأن العسكر صعد إلى سطح خان ابن المقدم وهو ملاصق السور فلو لم يدركهم الليل لملكوا البلد ، فلما أدركهم الليل وهم عازمون على الزحف بكرة وليس لهم عن البلد مانع حسد الظاهر أخاه الأفضل ، فأرسل إليه يقول له تكون دمشق له وبيده ويسير العساكر معه إلى مصر، فقال له الأفضل : قد علمت أن

والدتي وأهلي ، وهم أهلك أيضاً على الأرض ليس لهم موضح يأوون إليه ، فاحسب أن هذا البلد لك تُعيرنا إياه ليسكنها أهلي هذه المدّة إلى أن يملك مصر فلم يجبه الظاهر في ذلك ولجّ ، فلما رأى الأفضل ذلك الحال قال للناصرية وكل من جاء إليهم من الجند: إن كنتم جئتم إلي فقد أذنت لكم في العود إلى العادل ، وإن كنت جئتم إلى أخي الظاهر فانتم وهو أخبر، وكان الناس كلهم يريدون الأفضل ، فقالوا : ما نريد سواك والعادل أحب إلينا من أخيك ، فأذن لهم في العود، فهرب فخر الدين جهاركس وزير الدين قراجة الذي أعطاه الأفضل صرخد، فمنهم من دخل دمشق ، ومنهم من عاد إلى أقطاعه ، فلما انفسخ الأمر عليهم عادوا إلى تجف يد الصلح مِع العادل ، فترددت الرسل بينهم واستقرَّ الصلح على أن يكون للظاهر: منبج وأفامية وكَفرْ طاب (ا) وقرى معينة من المعرة، ويكون للأفضل سُمَيْسَاط وسَروج ورأس العين (2) وحملين ، ورحلوا عن دمشق أوّل المحرم سنة ثمان وتسعين ، فقصد الأفضل حمص فأقام بها، وسار الظاهر إلى حلب ، ووصل العادل إلى دمشق تاسع المحرم ، وسار الأفضل إليه من حمص ، فاجتمع به بظاهر دمشق ، وعاد من عنده إلى حمص ، وسار منها ليتسلم سميساط ، فتسلمها وتسلم باقي ما استقر له برأس العين وسروج وغيرها .

ذكر ملك غياث الدين وأخيه ما كان لخوارزم شاه بخراسان

قد ذكَرنا مسير محمد بن خرميل من الطالقان استيلاءه على مرورو‌ذ، وسؤال جقر التركي نائب علاء الدين محمد خوارزم شاه بمرو أن يكون في جملة عسكر غياث الدين ، ولما

وصل شاب ابن خرميل إلى غياث الدين في معنى جقر علم أنَّ هذا إنّما دعاه إلى الانتماء إليهم ضعف صاحبه ، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يستدعيه إلى خراسان ، فسار من غزنة في عساكره وجنوده وعدته وما يحتاج إليه ، وكان بهراة الأمير عمر بن محمد المرغني نائباً عن غياث الدين ، وكان يكره خروج غياث الدين إلى خراسان ، حضره غياث الدين واستشاره ، فأشار بالكفّ عن قصدها وترك المسير إليها ، فأنكر عليه ذلك وأراد إبعاده عنه ، ثمَّ تركه ووصل شهاب الدين في عساكره

(1) كفرطاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة.

(2) سُمَيساط : مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربى الفرات. وسَرُوج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر. ورأس عين : ويقال رأس العين ، مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر وهى إلى دنيسر أقرب.

وعساكر سجستان وغيرها في جمادى الأولى من هذه السنة، فلما وصلوا إلى ميمنة – وهي قرية بين الطالقان وكرْزُيان (ا) – وصل إلى شهاب الدين كتاب جقر مستحفظ مرو يطلبه ليسلمها إليه ، فاستأذن أخاه غياث الدين فاذن له ، فسار إليها، فخرج أهلها مع العسكر الخوارزمي وقاتلوه ، فأمر أصحابه بالحملة عليهم والجدّ في قتالهم فحملوا عليهم فأدخلوهم البلد وزحفوا بالفيلة الى ان قاربوا السور، فطلب أهل البلد الأمان فأمنهم وكفَ الناس عن التعرض إليهم ، وخرج جقر إلى شهاب الدين فوعده الجميل ، ثم حضر غياث الدين إلى مرو بعد فتحها فأخذ جقر وسيّره إلى هراة مكرماً وسلم مرو إلى هندوخان ابن ملك شاه بن خوارزم شاه تكش ، وقد ذكرنا هربه من عمه خوارزم شاه محمد بن تكش إلى غياث الدين ، ووصاه بالإحسان إلى أهلها .

ثم سار غياث الدين إلى مدينة سرخس فأخذها صلحاً وسلمها إلى الأمير زنكي بن مسعود ، وهو من أولاد عمه وأقطعه معها نساو أبيورد ، ثم سار بالعساكر إلى طوس ، فأراد الأمير الذي بها أن يمتنع فيها ولا يسلمها، فاغلق باب البلد ثلاثة أيام ، فبلغ الخبر ثلاثة أمناء بدينار ركني ، فضج أهل البلد عليه فأرسل إلى غياث الدين يطلب الأمان فأمنه فخرج إليه فخلع عليه وسيره إلى هراة ولما ملكها أرسل إلى علي شاه بن خوارزم شاه تكش ، وهو نائب أخيه علاء الدين محمد بنيسابور يأمره بمفارقة البلد ويحذره إن أقام سطوة أخيه شهاب الدين ، وكان مع علي شاه عسكر من خوارزم شاه ، فاتفقوا على الامتناع من تسليم البلد وحصره وخربوا ما بظاهره من العمارة

، وقطعوا الأشجار، وسار غياث الدين إلى نيسابور فوصل إليها م وائل رجب ، وتقدّم عسكر أخيه شهاب الدين إلى القتال ، فلما رأى غياث الدين ذلك قال لولده محمود : قد سبقنا عسكر غزنة بفتح مرو، وهم يريدون يفتحون نيسابور، فيحصلون بالإسم ، فاحمل إلى البلد ، ولا ترجع حتى تصل السور؛ فحمل ، وحمل معه وجوه الغورية، فلم يردهم أحد عن السور، حتى اصدوا علم غياث الدين اليه ، فلما رأى شهاب الدين علم أخيه على السور، قال لأصحابه : اقصدوا بنا هذه الناحية ، واصدوا السور من ههنا، وأشار إلى مكان فيه ، فسقط السور متهدماً، فضج الناس بالتكبير، وذهل الخوارزميون وأهل البلد ودخل الغورية البلد وملكوه عنوة ونهبوه ساعة من نهار، فبلغ الخبر إلى غياث الدين ، فأمر

(1) كرزيان : فى معجم البلدان كرْزبان وأهل خراسان يسمونها كرزوان ، بضم الكاف وبعد الراء الساكنة زاى وباء موحدة : بلدة فى الجبل قرب الطالقان جبلها متصل بجبل الغور.

بالنداء من نهب مالاً أو آذى أحداً فدمه حلال ، فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره ، ولقد حدثني بعض أصدقائنا من التجار، وكان بنيسابور في هذه الحادثة ، نهب من متاعي شيء من جملته سكر، فلمّا سمع العسكر النداء ردوا جميع ما أخذوا مني ، وبقي لي بساط وشيء من السكر مع جماعة فطلبته منهم ، فقالوا ، أما السكر فأكلناه فنسألك ان لا يسمع أحد، وإن أردت ثمنه أعطيناك ، فقلت : أنتم في حلّ منه ولم يكن البساط مع أولئك ، قال : فمشيت الى باب البلد مع النظارة، فرأيت البساط الذي لي قد ألقي عند باب البلد لم يجسر أحد يأخذه فأخذته ، وقلت : هذا لي ، فطلبوا مني من يشهد به فأحضرت من شهد لي وأخذته ، ثمَّ إن الخوارزميين تحصنوا بالجامع ، فأخرجهم أهل البلد فأخذهم الغورية ونهبوا مالهم وأخذ علي شاه بن خوارزم شاه ، وأحضر عند غياث الدين راجلًا، فأنكر ذلك على من أحضره وعظم الأمر فيه ، وحضرت دابة كانت لعلي شاه ، وقال لغياث الدين : أهكذا يفعل بأولاد الملوك ، فقال :لا بل هكذا، وأخذ بيده وأقعده معه على السرير وطيب نفسه ، وسيَّر جماعة الأمراء الخوارزمية إلى هراة تحت الاستظهار، وأحضر غياث الدين ابن عمّه وصهره على ابنة ضياء الدين محمد بن أبي الغوري ، وولاه حرب خراسان وخراجها ، ولقبه علاء الدين ، وجعل معه وجوه الغورية ، ورحل إلى هراة ، وسلم علي شاه إلى أخيه شهاب الدين وأحسن إلى أهل نيسابور وفرق فيهم مالاً كثيراً .

ثم رحل بعده شهاب الدين إلى ناحية قهستان ، فوصل إلى قرية فذكر له أن أهلها إسماعيلية فأمر بقتل المقاتلة ونهب

الأموال وسبي الذراري وخرب القرية، فجعلها خاوية على عروشها، ثم سار إلى كناباد، وهي من المدن التي جميع أهلها إسماعيلية ، فنزل عليها وحصرها ، فأرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين يشكو أخاه شهاب الدين ويتول بيننا عهد فما الذي بدا منا حتى تحاصر بلدي ؟ واشتد خوف الِإسماعيلية الذين بالمدينة من شهاب الدين ، فطلبوا الأمان ليخرجوا منه فأمنهم وأخرجهم وملك المدينة وسلمها إلى بعض الغورية فأقام بها الصلوات وشعار الِإسلام ، ورحل شهاب الدين فنزل على حصن آخر للِإسماعيلية ، وصل إليه رسول أخيه غياث الدين ، فقال الرسول : معي تقدم من السلطان فلا يجري حردان فعلته فقال لا أرحل قال : إذن أفعل ما أمرني ، قال : افعل ، فسل سيفه وقطع اطناب سرادق شهاب الدين

وقال ارحل بتقدم السلطان ، فرحل شهاب الدين والعسكر ، وهو كاره إلى بلد الهند ولم يقم بغزنة غضباً لما فعله أخوه .

ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما

في هذه السنة أيضاً تجهّز نور الدين أرسلان صاحب الموصل وجمع عساكره ، وسار إلى بلاد الملك العادل بالجزيرة حران والرها ، وكان سبب حركته أن الملك العادل لما ملك مصر– على ما ذكرناه قبل – اتّفق نور الدين والملك الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين وغيرهما على أن يكونوا يداً واحدة متفقين على منع العادل عن قصد أحدهم ، فلمّا تجدد حركة الأفضل والظاهر أرسلا إلى نور الدين ، ليقصد البلاد الجزرية، فسار عن الموصل في شعبان من هذه السنة، وسار معه ابن عمه قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي صاحب سنجار، ونصيبين وصاحب ماردين ، ووصل إلى رأس العين ، وكان الزمان قيظاً فكثرت الأمراض في عسكره ، وكان بحران ولد للعادل ، يلقب بالملك الفائز، ومعه عسكر يحفظ البلاد، فلما وصل نور الدين إلى رأس العين جاءت رسل الفائز ومن معه من أكابر الأمراء يطلبون الصلح ويرغبون فيه ، وكان نور الدين قد سمع بأن الصلح بدأ يتم بين الملك العادل والملك الظاهر والأفضل ، وانضاف إلى ذلك كثرة الأمراض في عسكره ، فأجاب إليه وحلف الملك الفائز ومن عنده من أكابر الأمراء على القاعدة التي استقرّت وحلفوا انهم يحلفون الملك العادل له ، فإن امتنع كانوا معه عليه ، وحلف هو للملك العادل ،وسارت الرسل من عنده ومن عند ولده في طلب اليمين من

العادل ، فأجاب إلى ذلك وحلف له واستقرَّت القاعدة وامنت البلاد، وعاد نور الدين إلى الموصل في ذي القعدة من السنة .

ذكر ملك شهاب الدين نهرواله

لما سار شهاب الدين من خراسان – على ما ذكرناه – لم يقم بغزنة وقصد بلاد الهند ، وأرسل مملوكه قطب الدين أيبك إلى نهرواله ، فوصلها سنة ثمان وتسعين ، فلقيه عسكر الهنود، فقاتلوه قتالاً شديداً فهزمهم أيبك واستباح معسكرهم ومالهم فيه من الدواب وغيرها، وتقدَم إلى نهرواله فملكها عنوة وهرب ملكها، فجمع وحشد فكثر جمعه وعلم شهاب الدين أنه لا يقدر على حفظها إلا بأن يقّيم هو فيها ويخليها من

أهلها، فيتعذر عليه ذلك ، فإنّ البلد عظيم هو اعظم بلاد الهند وأكثرهم أهلاً، فصالح صاحبها على ما يؤديه إليه عاجلًا وآجلاً، وأعاد عساكره عنها وسلمها إلى صاحبها .

ذكر ملك ركن الدين ملطية من أخيه وأرزن الروم

في هذه السنة في شهر رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان مدينة ملطيّة وكانت لأخيه معزّ الدين قيصرشاه ، فسار إليه وحصره أياماً وملكها ، وسار منها إلى ارزن الروم ، وكانت لولد الملك ابن محمد بن صلتق ،وهم ببيت قد ملكوا أرزن الروم مدة طويلة، فلمّا سار اليها وقاربها خرج صاحبها اليه ، ثقة به ليقرّر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين ، فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد، وكان هذا آخر أهل بيته الذين ملكوا، فتبارك الله الحي القيوم الذي لا يزول ملكه أبداً سرمداً .

ذكر وفاة سقمان صاحب آمد وملك أخيه محمود

في هذه السنة توفّي قطب الدين سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان صاحب آمد وحصن كيفا سقط من سطح جوسق ، كان له بظاهر حصن كيفا، فمات ، وكان شديد الكراهة لأخيه هذا ، والنفور عنه قد أبعده وأنزله حصن منصور في آخر بلادهم ، واتخذ مملوكاً اسمه إياس ، فزوجه اخته وأحبه حباً شديداً ، وجعله ولي عهده ، فلما توفي ملك بعده عدّة أيامِ ، وتهدّد وزيراً كان لقطب الدين وغيره من أمراء الدولة ، فأرسلوا إلى أخيه محمود سرّاَ يستدعونه ، فسار مجدّاً فوصل إلى آمد وقد سبقه اليها إياس مملوك أخيه ، فلم يقدم على الامتناع فتسلم محمود البلاد جميعها وملكها وحبس

المملوك ، فبقي مدّة محبوساً، ثمّ شفع له صاحب بلاد الروم ، فأطلق من الحبس ، وسار إلى الروم ، فصار اميراً من أمراء الدولة.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة اشتد الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل ، وتعذرت الأقوات حتى أكل الناس الميتة، وأكل بعضهم بعضاً، ثم لحقهم عليه وباء وموت كثير أفنى الناس .

وفي شعبان منها تزلزلت الأرض بالموصل وديار الجزيرة كلها والشام ومصر وغيرها ، فأثرت في الشام آثاراً قبيحة، وخربت كثيراً من الدور بدمشق وحمص

وحماة، وانخسفت قرية من قرى بصرى، وأثرت في الساحل الشامي أثراً كثيراً، فاستولى الخراب على طرابلس وصور وعتها ونابلس وغيرها من القلاع ، ووصلت الزلزلة إلى بلد الروم ، وكانت بالعراق يسيرة لم تهدم دوراً.

وفيها ولد ببغداد طفل له رأسان ، وذلك ان جبهته مفروقة بمقدار ما يدخل فيها ميل .

وفي هذه السنة في شهر رمضان توفي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي الواعظ ببغداد، وتصانيفه مشهورة وكان كثير الوقيعة في الناس لا سيما في العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له ، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة .

وفيها أيضاً توفي عيسى بن نصير النميري الشاعر، وكان حسن الشعر وله أدب وفضل ، وكان موته ببغداد، وفيها توفي العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله (باللام المشددة المضمومة)، وهو العماد الكاتب الأصفهاني كتب لنور الدين محمود بن زنكي ، ولصلاح الدين يوسف بن أيوب رضي الله عنهما – وكان كاتباً مفلقاً قادراً على القول .

وفيها جمع عبد الله بن حمزة العلوي المتغلب على جبال اليمن جموعاً كثيرة، فيها اثنا عشر ألف فارس ، ومن الرجالة ما لا يحص كثرة، وكان قد انضاف إليه من جند المعز بن إسماعيل بن سيف الإسلام طغدكين بن أيوب صاحب اليمن خوفاً منه ، وأيقنوا بملك البلاد واقتسموها وخافهم ابن سيف

الإسلام خوفاً عظيماً فاجتمع قواد عسكر ابن حمزة ليلاً ليتفقوا على رأي يكون العمل بمقتضاه ، وكانوا اثني عشر قائداً فنزلت عليهم صاعقة أهلكتهم جميعهم ، فأتى الخبر ابن سيف الإِسلام في باقي الليلة بذلك فسار اليهم مجدا فأوقع بالعسكر المجتمع ، فلم يثبتوا له وانهزموا بين يديه ، ووضع السيف فيهم ، فقتل منهم ستة آلاف قتيل أو اكثر من ذلك ، وثبت ملكه واستقر أمره .

وفيها وقع في بني عنزة بأرض الشراة بين الحجاز واليمن وباء عظيم وكانوا يسكنون في عشرين قرية، فوقع الوباء في ثمان عشرة قرية، فلم يبق منهم أحد، وكان الِإنسان إذا قرب من تلك القرى يموت ساعة ما يقاربها فتحاماها الناس ، وبقيت إبلهم وأغنامهم لا مانع لها، وأما القريتان الأخريان ، فلم يمت فيهما أحد، ولا احسوا بشيء مما كان فيه أولئك .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك خوارزم شاه ما كان أخذه الغورية من بلاده

قد ذكرنا في سنة سبع وتسعين ملك غياث الدين وأخيه شهاب الدين ، ما كان لخوارزم شاه محمد بن تكش بخراسان ومرو ونيسابور وغيرها، وعودهما عنها بعد أن أقطعا البلاد، ومسير شهاب الدين إلى الهند. فلما اتصل بخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش عود العساكر الغورية عن خراسان ، ودخول شهاب الدين الهند أرسل إلى غياث الدين يعاتبه ويقول : كنت اعتقد أن تخلف علي بعد أبي ، وان تنصرني على الخطا، وتردهم عن بلادي ، فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لا تؤذيني وتأخذ بلادي ، والذي أريده أن تعيد ما أخذته مني إلي ، وإلا انتصرت عليك بالخطأ وغيرهم من الأتراك إن عجزت عن أخذ بلادي فإنني إنما شغلني عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدي وتقرير أمر بلادي ، وإلا فما أنا بعاجز عنكم وعن أخذ بلادك خراسان وغيرها ، فغالطه غياث الدين في الجواب ليمهد الأيام بالمراسلات ، ويخرج أخوه شهاب الدين من الهند بالعساكر، فإن غياث الدين كان عاجزاً باستيلاء النقرس عليه . فلمّا وقف خوارزم شاه على رسالة غياث الدين أرسل إلى علاء الدين الغوري نائب غياث الدين بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور ويتهدده إن لم يفعل ، فكتب علاء الدين إلى غياث الدين بذلك ، ويعرفه ميل أهل البلد إلى الخوارزميين ،فأعاد غياث الدين جوابه يقوّي قلبه ويعده النصرة والمنع عنه وجمع خوارزم شاه عساكره وسار عن خوارزم نصف ذي الحجة سنة سبع وتسعين وخمسمائة، فلما قارب نسا وأبيورد هرب هندوخان ابن أخي ملك شاه من مرو إلى غياث الدين بفيروزكوه ، وملك خوارزم

شاه مدينة مرو، وسار إلى نيسابور، وبها علاء الدين ، فحصره وقاتله قتالًا شديداً، وطال مقامه عليها، وراسله غير مرة في تسليم البلد إليه ، وهو لا يجيب إلى ذلك انتظاراً للمدد من غياث الدين ، فبقي نحو

شهرين ، فلما أبطأت عليه النجدة أرسل إلى خوارزم شاه يطلب الأمان لنفسه ولمن معه من الغورية، وأنه لا يتعرض إليهم بحبس ولا غيره من الأذى، فأجابه إلى ذلك وحلف لهم ، وخرجوا من البلد وأحسن خوارزم شاه إليهم ووصلهم بمال جليل وهدايا كثيرة، وطلب من علاء الدين أن يسعى في الصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه ، فأجابه إلى ذلك وسار إلى هراة وفيها إقطاعه ولم يقض إلى غياث الدين تجنياً عليه لتأخر أمداده .

ولما خرج الغورية من نيسابور أحسن خوارزم شاه إلى الحسين بن خرميل ،وهو من أعيان أمرائهم زيادة على غيره وبالغ في إكرامه ، فقيل : إنه من ذلك اليوم استخلفه لنفسه ، وأن يكون معه بعد غياث الدين وأخيه شهاب الدين ، ثم سار خوارزم شاه إلى سرخس وبها الأمير زنكي ، فحضره أربعين يوما وجرى بين الفريقين حروب كثيرة، فضاقت الميرة على أهل البلد لا سيما الحطب ، فأرسل زنكي إِلى خوارزم شاه يطلب منه أن يتأخر عن باب البلد حتى يخرج هو وأصحابه ويترك البلد له ، فراسله خوارزم شاه في الاجتماع به ليحسن إليه وإلى من معه ، فلم يجبه إلى ذلك واحتج بقرب نسبه من غياث الدين ، فأبعد خوارزم شاه عن باب البلد بعساكره ، فخرج زنكي فاخذ من الغلات وغيرها التي في العسكر ما أراد لا سيما من الحطب وعاد إلى البلد، وأخرج منه من كان قد ضاق به الأمر، وكتب إلى خوارزم شاه (العود أحمد) فندم حيث لم ينفعه الندم ، ورحل عن البلد وترك عليه جماعة من الأمراء يحصرونه ، فلما أبعد خوارزم شاه سار محمد بن جربك

من الطالقان – وهو من أمراء الغورية – وأرسل إلى زنكي أمير سرخس يعرفه أنه يريد يكبس الخوارزميين لئلا ينزعج إذا سمع الغلبة، وسمع الخوارزميون الخبر ففارقوا سرخس ، وخرج زنكي ولقي محمد بن جربك ، وعسكرا في مرو الروذ ، وأخذ أخراجها وما يجاورها ، فسيّر اليهم خوارزم شاه عسكراً مع خاله فلقيهم محمد بن جربك وقاتلهم ، وحمل بلت في يده على صاحب علم الخوارزمية فضربه فقتله ، وألقى علمهم وكسر كوساتهم ، فانقطع صوتها عن العسكر ولم يروا أعلامهم فانهزموا وركبهم الغورية قتلاً وأسرا نحو فرسخين ، فكانوا ثلاثة آلاف فارس وابن جربك في تسعمائة فارس ، وغنم جميع معسكرهم ، فلما سمع خوارزم شاه ذلك عاد إلى خوارزم ، وأرسل إلى غياث الدين في الصلح ، فأجابه عن رسالته مع أمير كبير من الغورية يقال له : الحسين بن محمد المرغني و(مرغن) من قرى الغور فقبض عليه خوارزم شاه .

ذكر حصر خوارزم شاه هراة وعوده عنها

لما أرسل خوارزم شاه إلى غياث الدين في الصلح ، وأجابه عن رسالته مع الحسين المرغني مغالطاً، قبض خوارزم شاه على الحسين وسار إلى هراة ليحاصرها، فكتب الحسين إلى أخيه عمر بن محمد المرغني أمير هراة يخبره بذلك ، فاستعد للحصار، وكان سبب قصد خوارزم شاه حصار هراة ان رجلين اخوين ممن كان يخدم محمداً سلطان شاه اتصلا بغياث الدين بعد وفاة سلطان شاه ، فأكرمهما غياث الدين وأحسن إليهما يقال لأحدهما الأمير الحاجي ، فكاتبا خوارزم شاه ، وأطمعاه في البلد ، وضمنا له تسليمه إليه ، فسار لذلك ونازل المدينة وحصرها، فسلَّم الأمير عمر المرغني أمير البلد مفاتح الأبواب إليهما وجعلهما على القتال ، ثقة منه بهما وظنا منه أنهما عدوا خوارزم شاه تكش وابنه محمد بعده ، فاتّفق أن بعض الخوارزمية أخبر الحسين المرغني عند خوارزم شاه بحال الرجلين ، وأنهما هما اللذان يدبران خوارزم شاه ويأمرانه بما يفعل ، فلم يصدقه وأتاه بخط الأمير حاجي ، فأخذه وأرسله إلى أخيه عمر أمير هراة فأخذهما واعتقلهما وأخذ اصحابهما، ثم إن ألب غازي وهو ابن اخت غياث الدين جاء في عسكر من الغورية، فنزل على خمسة فراسخ من هراة، فكان يمنع الميرة عن عسكر خوارزم شاه ، ثم إن خوارزم شاه سيّر عسكراً إلى أعمال الطالقان للغارة عليها ، فلقيهم الحسن بن جربك فقاتلهم فظفر بهم ، قلم يفلت منهم أحد. وسار غياث الدين عن فيروزكوه إلى هراة في عسكره ، فنزل برباط رزين بالقرب من هراة، ولم يقدم على خوارزم شاه لقلّة عسكره

لأن أكثر عساكره كانت مع أخيه بالهند وغزنة ، فأقام خوارزم شاه على هراة أربعين يوما وعزم على الرحيل ، لأنه بلغه انهزام أصحابه بالطالقان ، وقرب غياث الدين وكذلك أيضاً قرب ألب غازي ، وسمع أيضاً أن شهاب الدين قد خرج من الهند إلى غزنة، وكان وصوله اليها في رجب من هذه السنة، فخاف أن يصل بعساكره فلا يمكنه المقام على البلد، فأرسل إلى أمير البلد عمر المرغني فصالحه على مال حمله إليه وارتحل عن البلد، وأما شهاب الدين فإنه لمّا وصل إلى غزنة بلغه الخبر بما فعله خوارزم شاه بخراسان وملكه لها ، فسار إلى خراسان فوصل إلى بلخ ، ومنها إلى باميان ثمّ إِلى مرو عازماً على حرب خوارزم شاه ، وكان نازلًا هناك ، فالتقت أوائل عسكريهما، واقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل من الفريقين خلق كثير، ثمَّ إن خوارزم شاه ارتحل عن مكانه شبه المنهزم ، وقطع القناطر، وقتل الأمير سنجر صاحب نيسابور لأنه

اتهمه بالمخامرة عليه ، وتوجه شهاب الدين إلى طوس فأقام بها تلك الشتوة على عزم المصير إلى خوارزم ليحصرها ، فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين ، فقصد هراة وترك ذلك العزم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة درس مجد الدين أبو علي يحيى بن الربيع الفقيه الشافعي بالنظامية ببغداد في ربيع الأول .

وفيها توفيت بنفشه جارية الخليفة المستنصر بأمر الله ، وكان كثير الميل إليها والمحبّة لها، وكانت كثيرة المعروف والإحسان والصدقة . وفيها أيضاً توفي الخطيب عبد الملك بن زيد الدولعي خطيب دمشق ، وكان فقيهاً شافعياً، والدولعية قرية من أعمال الموصل .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة

ذكر حصر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها

في هذه السنة في المحرم سير الملك العادل –أبو بكر بن أيوب ، صاحب دمشق ومصر– عسكراً مع ولده الملك الأشرف موسى إِلى ماردين فحصروها وشحنوا على أعمالها ، وانضاف إليه عسكر الموصل وسنجار وغيرهما ، ونزلوا بخرزم تحت ماردين ، ونزل عسكر من قلعة البارعية، وهي لصاحب ماردين يقطعون الميرة عن العسكر العادليّ ، فسار إليهم طائفة من العسكر العادلي فاقتتلوا ، فانهزم عسكر البارعية ، وثار التركمان وقطعوا الطريق في تلك الناحية، وأكثروا الفساد، فتعذر سلوك الطريق إلا لجماعة من أرباب السلاح ، فسار طائفة من العسكر العادلي إلى رأس العين لإِصلاح الطرق وكف عادية الفساد، وأقام ولد العادل ولم يحصل له غرض ، فدخل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب في الصلح بينهم ، وأرسل إلى عمه العادل في ذلك ، فأجاب إليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار، فجاء صرف الدينار أحد عشر قيراطاً من أميري ، ويخطب له ببلاده ، ويضرب اسمه على السكة، ويكون عسكره في خدمته أي وقت طلبه ، وأخذ الظاهري عشرين ألف دينار من النقد المذكور وقرية القرادي من أعمال شيختان ، فرحل ولد العادل عن ما ردين .

ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشيء من سيرته

في هذه السنة في جمادى الأولى، توفي غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام الغوري صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها ، وأخفيت وفاته ، وكان أخوه شهاب الدين بطوس

عازماً على قصد خوارزم شاه ، فاتاه الخبر بوفاة أخيه ، فسار إلى هراة، فلما وصل إليها جلس للعزاء بأخيه في رجب ، وأظهرت وفاته حينئذ، وخلف غياث الدين من الولد

ابنا اسمه محمود لقب بعد موت أبيه غياث الدين ، وسنورد من أخباره كثيراً . ولمّا سار شهاب الدين من طوس استخلف بمرو الأمير محمد بن جربك ، فسار إليه جماعة من الأمراء الخوارزمية، فخرج إليهم محمّد ليلاً وبيتهم ، فلم ينج منهم إلا القليل ، وأنفذ الأسرى ، والرؤوس إلى هراة ، فأمر شهاب الدين بالاستعداد لقصد خوارزم على طريق الرمل ، وجهَز خوارزم شاه جيشاً وسيّرهم مع برفور التركي الى قتال محمد بن جربك ، فسمع بهم فخرج إليهم ؟لقيهم على عشرة فراسخ من مرو، فاقتتلوا قتالاً شديداً قتل بين الفريقين خلق كثير، وانهزم الغورية، ودخل محمد بن جربك مرو في عشرة فرسان ، وجاء الخوارزميون فحصروه خمسة عشر يوما فضعف عن الحفظ ، فأرسل في طلب الأمان ، فحلفوا له إن خرج إليهم على حكمهم أنهم لا يقتلونه ، فخرج فقتلوه وأخذوا كل ما معه ، وسمع شهاب الدين الخبر، فعظم عليه وترددت الرسل بينه وبين خوارزم شاه ، فلم يستقر الصلح ، وأراد العود إلى غزنة، فاستعمل على هراة ابن أخيه ألب غازي ، وفلك الملك علاء الدين محمد بن أبي علي الغوري على مدينة فيروزكوه ، وجعل إليه حرب خراسان ، وأمر كل ما يتعلق بالمملكة، وأتاه محمد ابن أخيه غياث الدين ، فولاه مدينة بست واسفرار وتلك الناحية ، وجعله بمعزل من الملك جميعه ، ولم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه ولا على غيره من أهله ، فمن جملة فعله أن غياث الدين كانت له زوجة كانت مغنيّة فهويها وتزوجها، فلما مات غياث الدين قبض عليها وضربها ضرباً مبرحاً، وضرب ولدها غياث الدين وزوج أختها، وأخذ أموالهم وأملاكهم وسيرهم إلى بلد

الهند، فكانوا في أقبح صورة، وكانت قد بنت مدرسة ودفنت فيها أباها وأمها وأخاها، فهدمها ونبش قبور الموتى ورمى بعظامهم منها، وأما سيرة غياث الدين وأخلاقه ، فإنه كان مظفراً منصوراً في حروبه لمٍ تهزم له راية قط ، وكان قليل المباشرة للحروب ، وإنما كان له دهاء ومكر، وكان جوادا حسن الاعتقاد كثير الصدقات والوقوف بخراسان ، بنى المساجد والمدارس بخراسان لأصحاب الشافعي ، وبنى الخانكاهات

في الطرق ، وأسقط المكسوس ، ولم يتعرض إلى مال أحد من الناس ، ومن مات ببلده يسلم ماله إلى أهل بلده من التجار، فإن لم يجد أحداً يسلّمه إلى القاضي ويختم عليه إلى أن يصل من يأخذه بمقتض الشرع ، وكان إذا وصل إلى بلدٍ عم إحسانه أهله والفقهاء وأهل الفضل يخلع عليهم ويفرض لهم الأعطيات كل سنة من خزانته ، ويفرق الأموال في الفقراء، وكان يراعي كل من وصل إلى حضرته من العلويين والشعراء

وغيرهم ، وكان فيه فضل غزير وأدب مع حسن خط وبلاغة، وكان رحمه الله ينسخ المصاحف بخطِّه ويوقفها الى المدارس التي بناها، ولم يظهر منه تعصُّب على مذهب ، ويقول : التعصب . في المذاهب من الملك قبيح إلا أنه كان شافعي المذهب . فهو يميل إلى الشافعية من غير أن يطمعهم في غيرهم ولا أعطاهم ما ليس لهم .

ذكر أخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل

في هذه السنة أخذ الظاهر غازي قلعة نجم من أخيه الأفضل ، وكانت في جملة ما أخذ من العادل لمّا صالحه سنة سبع وتسعين ، فلما كان هذه السنة أخذ العادل من الأفضل سروج وحملين ورأس العين ، وبقي بيده سميساط وقلعة نجم ، فأرسل الظاهر اليه يطلب منه قلعة نجم ، وضمن له أنه يشفع إلى عمه العادل في إعادة ما أخذ منه قلم يعطه ، فتهدده بأن يكون ألباً عليه ولم تزل الرسل تتردَد حتى سلمها إليه في شعبان ، وطلب منه أن يعوضه قرى أو مالاً فلم يفعل ، وكان هذا من أقبح ما سمع عن ملك يزاحم أخاه في مثل قلعة نجم مع خستها وحقارتها وكثرة بلاده هو وعدمها لأخيه ، وأما العادل فإنه لما أخذ سروج ورأس العين من الأفضل أرسل والدته إليه لتسأل في ردها، فلم يشفعها وردها خائبة، ولقد عوقب البيت الصلاحي بما فعله أبوهم مع البيت الأتابكى ،فإنه لما قصد حصار الموصل سنة ثمانين وخمسمائة أرسل صاحب الموصل والدته وابنه عتم نور الدين إليه يسألانه أن يعود ، فلم يشفعهما فجرى لأولاده هذا وردت زوجته خائبة كما فعل ، ولما رأى الأفضل عمّه وأخاه قد أخذا ما كان بيده أرسل إلى ركن الحدين

سليمان بن قلج أرسلان صاحب ملطية وقونية وما بينهما من البلاد يبذل له الطاعة، وأن يكون في خدمته ، ويخطب له ببلده ، ويضرب السكة باسمه ، فأجابه ركن الدين إلى ذلك ، وأرسل له خلعة فلبسها الأفضل ، وخطب له بسميساط في سنة ستمائة وصار في جملته .

ذكر ملك الكرج مدينة دوين

في هذه السنة استولى الكرج على مدينة دوين من أذربيجان ونهبوها واستباحوها وأكثروا في أهلها، وكانت هي وجميع بلاد أذربيجان للأمير أبي بكر بن البهلوان ، وكان على عادته مشغولاً بالشرب ليلاً ونهاراً، لا يفيق ولا يصحو ولا ينظر في أمر مملكته

ورعيته وجنده قد ألقى الجميع اعن قلبه ، وسلك طريق من ليس له علاقة، وكان أهل تلك البلاد قد أكثرت الاستغاثة اليه وإعلامه بقصد الكرج بلادهم بالغارة مرة بعد أخرى ، فكأنهم ينادون صخرة صماء ، فلما حصر الكرج هذه السنة مدينة دوين سار منهم جماعة يستغيثون ، فلم يغثهم وخوّفه جماعة من أمرائه عاقبة إهماله وتوانيه وإصراره ما هو فيه فلم يصغ إِليهم فلما طال الأمر على أهلها ضعفوا وعجزوا وأخذهم الكرج عنوةً بالسيف ، وفعلوا – ما ذكرنا – ثم إن الكرج بعد أن استقر أمرهم بها أحسنوا إلى من بقي من أهلها، فالله تعالى ينظر إلى المسلمين ويسهل لثغورهم من يحفظها ويحميها فإنها مستباحة لا سيما هذه الناحية، فإنا لله لانا إليه راجعون ، فقد بلغنا من فعل الكرج بأهل دوين من القتل والسبي والأمر ما تقشعر منه الجلود.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أحضر الملك العادل محمداً ولد العزيز صاحب مصر إلى الرها، وذلك انه لمّا قطع خطبته من مصر سنة ست وتسعين –كما ذكرناه – خاف شيعة أبيه أن يجتمعوا عليه ويصير له معهم فتنة، فأخرجه سنة ثمان وتسعين إلى دمشق ، ثم نقله هذه السنة إِلى الرها، فأقام بها ومعه جميع إخوته وأخواته ووالدته ومن يخصه .

وفيها في رجب توفي الشيخ وجيه الدين محمد بن محمود المروروذي الفقيه الشافعي وهذا الذي كان لمسبب في أن صار غياث الدين شافعياً . وفي ربيع الأول منها في أبو الفتح عبيد الله بن أبي المعمر الفقيهْ الشافعي المعروف بالمستملي

ببغداد وله حظ حسن . وفي ربيع الآخر توفيت زمرد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله ، وأخرجت جنازتها طاهرة صلى الخلق الكثير عليها، ودفنت في التربة التي بنتها لنفسها ،وكانت كثيرة المعروف .

ثم دخلت سنة ستمائة

ذكر حصار خوارزم شاه هراة ثانية

في هذه السنة أول رجب وصل خوارزم شاه محمد إلى مدينة هراة ، فحصرها وبها ألب غازي ابن اخت شهاب الدين الغوري ملك غزنة بعد مراسلات جرت بينه وبين شهاب الدين في الصلح ، فلم يتم ، وكان شهاب الدين قد سار عن غزنة إلى لهاوور عازماً على غزو الهند، فأقام خوارزم شاه على حصار هراة إلى سلخ شعبان ، وكان القتال دائماً والقتل من الفريقين كثير وممن قتل رئيس خراسان ، وكان كبير القدر يقيم بمشهد طوس ، وكان الحسين بن خرميل بكرزيان (أ) وير أقطاعه ، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له : ارسل إلف عسكرا لنسلم إليهم الفيلة وخزانة شهاب الدين فأرسل إليه ألف فارس من أعيان عسكره إلى كرزيان ، فخرج عليه هو والحسين بن محمد الميرغني ، فقتلوهم إلا القليل ، فبلغ الخبر إلى خوارزم شاه ، فسقط ما في يديه وندم على إنفاذ العسكر، وأرسل إلى ألب غازي يطلب منه أن يخرج إليه من البلد ويخدمه خدمة سلطانية ليرحل عنه ، فلم يجبه إلى ذلك ، فاتَّفق أن ألب غازي مرض واشتد مرضه ، فخاف أن يشتغل بمرضه ، فيملك خوارزم شاه البلد ، فأجاب إلى ما طلب منه واستحلفه على الصلح ، وأهدى له هدية جليلة، وخرج من البلد ليخدمه ، فسقط إلى الأرض ميتاً ولم يشعر أحد بذلك ، وارتحل خوارزم شاه عن البلد، وأحرق المجانيق ، وسار إلى سرخس فأقام بها .

ذكر عود شهاب الدين من الهند وحصر خوارزم وانهزامه من الخطا

في هذه السنة في رمضان عاد شهاب الدين الغوري الى خراسان من قصد الهند،

(1) كرزيان : في معجم البلدان كرزبان ، انظر الحاشية رقم 3 صفحة 253 من هذا الجزء .

وسبب ذلك أنه بلغه حصر خوارزم شاه هراة، وموت ألب غازي نائبه بها، فعاد حنقاً على خوارزم شاه ، فلما بلغ ميمند عدل إِلى طريق أخرى قاصداً إلى خوارزم ، فأرسل خوارزم شاه يقول له : ارجع إلي لأحاربك ، وإلا سرت إلى هراة ومنها إِلى غزنة، وكان خوارزم شاه قد سار من سرخس إلى مرو فأقام بظاهرها ، فأعاد إليه شهاب الدين جوابه لعلك تنهزم كما فعلت تلك الدفعة، لكن خوارزم تجمعنا ففرق خوارزم شاه عساكره ، وأحرق ما جمعه من العلف ورحل يسابق شهاب الدين إلى خوارزم ، فسبقه إليها فقطع الطريق وأجرى المياه فيها، فتعذر على شهاب الدين سلوكها، وأقام أربعين يوما يصلحها حتى أمكنه الوصول إلى خوارزم ، والتقى العسكران بسوقرا – ومعناه الماء الأسود – فجرى بينهم قتال شديد كثرت القتلى فيه بين الفريقين ، وممن قتل من الغورية الحسين المرغني وغيره ، وأسر جماعة من الخوارزمية، فأمر شهاب الدين بقتلهم فقتلوا.

وأرسل خوارزم شاه إلى الأتراك الخطا يستنجدهم ، وهم حينئذ أصحاب ما ورآه النهر، فاستعدوا وساروا إلى بلاد الغورية ، فلما بلغ شهاب الدين ذلك عاد عن خوارزم ، فلقي أوائلهم في صحراء اندخوي أول صفر سنة إحدى وستمائة ، فقتل فيهم وأسر كثيراً،فلما كان اليوم الثاني دهمه من الخطا ما لا طاقة له بهم . فانهزم المسلمون هزيمة قبيحة، وبقي شهاب الدين في نفر يسير، وقتل بيده أربعة أفيال له لأنها أعيت وأخذ الكفار فيلين ، ودخل شهاب الدين اندخوي فيمن معه وحصره الكفار، ثم صالحوه على أن يعطيهم فيلاً آخر ففعل ، وخلص ووقع

الخبر في جميع بلاده بأنه قد عدم وكثرت الأراجيف بذلك ، ثم وصل إلى الطالقان في سبعة نفر، وقد قتل أكثر عسكره ، ونهبت خزائنه جميعها فلم يبق منها شيء فأخرج له الحسين بن خرميل صاحب الطالقان خياما وجميع ما يحتاج إليه ، وسار إلى غزنة وأخذ معه الحسين بن خرميل لأنه قيل له عنه : إنه شديد الخوف لانهزامه ، وانه قال إذا سار السلطان هربت إلى خوارزم شاه ، فأخذه معه وجعله أمير حاجب ، ولما شاع الخبر بقتل شهاب الدين جمع ناج الدين الدز، – وهو مملوك اشتراه شهاب الدين – أصحابه ، وقصد قلعة غزنة ليصعد اليها، فمنعه مستحفظها، فعاد إلى داره ، فأقام بها وأفسد الخلج وسائر المفسدين في البلاد، وقطعوا الطرق وقتلوا كثيراً ، فلما عاد شهاب الدين إلى غزنة بلغه ما فعله الدر، فأراد قتله فشفع فيه سائر المماليك ، فأطلقه ، ثم اعتذر، وسار شهاب الدين في البلاد،

فقتل من المفسدين من تلك الأمم نفراً كثيراً ، وكان له أيضاً مملوك آخر اسمه أيبك بال تر، فسلم من المعركة، ولحق بالهند، ودخل المولتان ، وقتل نائب السلطان بها، وملك البلد وأخذ الأموال السلطانية ، وأساء السيرة في الرعية وأخذ أموالهم ، وقال : قتل السلطان وأنا السلطان ، وكان يحمله على ذلك ويحسنه له إنسان اسمه عمر بن يزان ، وكان زنديقاً ففعل ما أمره وجمع المفسدين وأخذ الأموال ، فأخاف الطريق ، فبلغ خبره إلى شهاب الدين ، فسار إلى الهند وأرسل إليه عسكراً ، فأخذوه ومعه عمر بن يزان ، فقتلهما أقبح قتلة وقتل من وافقهما في جمادى الآخرة من سنة إحدى وستمائة، ولما رآهم قتلى قرأ { إنّما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا }(1) الآية، وأمر شهاب الدين في جميع بلاده بالتجهز لقتال الخطا وغزوهم والأخذ بثارهم ، وقيل : كان سبب انهزامه أنه لما عاد إلى الخطا من خوارزم فرق عسكره في المفازة التي في طريقه لقلة الماء وكان الخطا قد نزلوا على طرف المفازة، فكلما خرج من أصحابه طائفة فتكوا فيهم بالقتل والأسر، ومن سلم من عسكره انهزم نحو البلاد، ولم يرجع إليه أحد يعلم الحال ، وجاء شهاب الدين في ساقة العسكر في عشرين ألف فارس ، ولم يعلم الحال ، فلمّا خرج من البرية لقيه الخطا مستريحين ، وهو ومن معه قد تعبوا وأعيوا ، وكان الخطا اضعاف أصحابه ،فقاتلهم عامة نهاره وحمى نفسه منهم وحصروه في اندخوي ، فجرى بينهم في عدة أيام ربعة عشر مصافاً منها مصاف واحد كان من العصر إلى بكرة الغد، ثم إنه بعد ذلك سيّر طائفة من

عسكره ليلًا سرّاً وأمرهم أن يرجعوا إِليه بكرة كأنهم قد أتوه مدداً من بلاده ، فلما فعلوا ذلك خافه الخطا وقال لهم صاحب سمرقند وكان مسلما، وهو في طاعة الخطا، وقد خاف على الإسلام والمسلمين ان هم ظفروا بشهاب الدين ، فقال لهم : إن هذا الرجل لا نجد قط أضعف منه لما خرج من المفازة، ومع ضعفه وتعبه وقلة من معه لم نظفر به والأمداد أتته وكأنكم بعساكره وقد أقبلت من كل طريق ، وحينئذ نطلب الخلاص منه فلا نقدر عليه ، والرأي لنا الصلح معه ، فأجابوا إلى ذلك ، فأرسلوا إليه في الصلح ، وكان صاحب سمرقند قد أرسل إليه وعرفه الحال سراً، وأمره بإظهار الامتناع من الصلح أولا والاجابة اليه اخيراً ، فلمّا أتته الرسل امتنع واظهر القوة بانتظار الأمداد، وطال الكلام ، فاصطلحوا على أن الخطا لا يعبرون النهر إلى بلاده ، ولا يعبر إلى

(1) سورة المائدة آية 33

بلادهم ورجعوا عنه ، وخلص هو وعاد إلى بلاده والباقي نحو ما تقدم .

ذكر قتل طائفة من الاسماعيلية بخراسان

في هذه السنة وصل رسول الى شهاب الدين الغوري من عند مقدم الاسماعيلية بخراسان برسالة أنكرها، فأمر علاء الدين محمد بن أبي علي متولّي بلاد الغورية بالمسير إليهم ، ومحاصرة بلادهم ، فسار في عساكر كثيرة إلى قهستان ، وسمع به صاحب زوزن ، فقصده وسار معه وفارق خدمة خوارزم شاه ، ونزل علاء الدين على مدينة قاين ، – وهي للاسماعيلية – وحصرها وضيّق على أهلها ، ووصل خبر قتل شهاب الدين على ما نذكره ، فصالح أهلها على ستين ألف دينار ركنية، ورحل عنهم ، وقصد حصن كاخك فأخذوه ، وقتل المقاتلة وسبى الذرية ورحل إلى هراة ومنها إلى فيروزكوه .

ذكر ملك القسطنطينية من الروم

في هذه السنة لي شعبان ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم ، وأزالوا ملك الروم عنها، وكان سبب ذلك أن ملك الروم بها تزوّج أخت ملك إفرنسيس ، وهو من أكبر ملوك الفرنج ، فرزق منها ولداً ذكراً، ثم وثب على الملك أخ له ، فقبض عليه ، وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه ، فهرب ولده ومض إلى خاله مستنصراً به على عمّه فاتفق ذلك ، وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا إلى بلاد الشام ، لاستنقاذ البيت المقدس ، فأخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصداً لِإصلاح الحال بينه وبين عمه ، ولم يكن له طمع في سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه في عسكر الروم

محارباً لهم ، فوقع القتال بينهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم ، ودخلوا البلد فدخله الفرنج معهم فهرب ملك الروم إلى أطراف البلاد، وقيل إن ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد، وإنما حصروه فيها، وكان بالقسطنطينية من الروم من يريد الصبي ، فألقوا النار في البلد، فاشتغل الناس بذلك ، ففتحوا باباً من أبواب المدينة، فدخلها الفرنج ، وخرج ملكها هارباً، وجعل الفرنج الملك في ذلك الصبي ، وليس له من الحكم شيء وأخرجوا أباه من السجن إنما الفرنج هم الحكام في البلد، فثقلوا الوطأة على أهله ، وطلبوا منهم أموالاً عجزوا عنها، وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك حتى ما على الصلبان ، وهو على صورة المسيح عليه السلام ، والحواريين ، وما على الأناجيل من

ذلك أيضاً، فعظم ذلك على الروم وحملوا منه خطباً عظيماً، فعمدوا إلى ذلك الصبي الملك فقتلوه ، وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الأبواب واستحضروا الملك ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ستمائة فأقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلاً ونهاراً، وكان الروم قد ضعفوا ضعفاً كثيراً، فأرسلوا إِلى السلطان ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه ، قلم يجد إلى ذلك سبيلًا، وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفاً ولعظم البلد لا يظهر أمرهم فتواضعوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد، وفتحوا الأبواب فدخلوها، ووضعوا السيف ثلاثة أيام ، وفتكوا بالروم قتلاً ونهباً، فأصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئاً، ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التي تدعى سوفيا، فجاء الفرنج إليها، فخرج إليهم جماعة من القسيسين والأساقفة والرهبان بأيديهم الإنجيل والصليب يتوسلون بها الى الفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم م جمعين ونهبوا الكنيسة، وكانوا ثلاثة ملوك ، دوقس البنادقة، وهو صاحب المراكب البحرية ، وفي مراكبه ركبوا إلى القسطنطينية ، وهو شيخ أعمى إذا ركب تقاد فرسه ، والأخر يقال له المركيس ، وهو مقدم الإفرنسيس ، والآخر يقال له كند أفلند ، وهو أكثرهم عدداً ، فلما استولى على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كند أفلند فأعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتي ملكه من يشاء وبنزعه ممن

يشاء، فلما خرجت القرعة عليه ملكوه عليها وعلى ما يجاورها، وتكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة إقريطش وجزيرة رودس وغيرهما، ويكون لمركيس الإفرنسيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل أزنيق ولاذيق ، فلم يحصل لأحد منهم شيء غير الذي أخذ القسطنطينية، وأما الباقي فلم يسلم من به من الروم ، وأما البلاد التي كانت لملك القسطنطينية شرقي الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان ، ومن جملتها أزنيق ولاذيق ، فإنها تغلب عليها بطريق الروم اسمه لشكري ، وهي بيده إلى أن توفي .

ذكر انهزام نور الدين صاحب الموصل من العسكر العادلية

في هذه السنة في العشرين من شوال انهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل من العساكر العادلية ، وسبب ذلك أن نور الدين كان بينه وبين عمه قطب الدين محمد بن

زنكي صاحب سنجار وحشة مستحكمة أولاً، فاتفقا وسار معه إلى ميافارقين سنة خمس وتسعين وقد ذكرناه ، فلما كان الآن أرسل الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة إلى قطب الدين واستماله ، فمال إليه وخطب له ، فلما سمع نور الدين ذلك سار إِلى مدينة نصيبين سلخ شعبان ، وهي لقطب الدين ، فحصرها وملك المدينة ، وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام ، فبينما هو يحاصرها ،وقد أشرف على أن يتسلمها أتاه الخبر أن مظفر الدين بوكبري زين الدين على صاحب إربل قد قصد أعمال الموصل ، فنهب نينوى وأحرق غلاتها ، فلما بلغه ذلك من نائبه المرتب بالموصل يحفظها سارعن نصيبين إلى الموصل على عزم العبور إلى بلد إربل ونهبه جزاء بما فعل صاحبها ببلده ، فوصل إلى مدينة بلد(ا) ، وعاد مظفر الدين إلى بلده ، وتحقق نور الدين أن الذي قيل له وقع فيه زيادة، فسار إلى تل أعفر من بلد، وهب لصاحب سنجار وحصرها وأخذها ورتب أمورها وأقام عليها سبعة عشر يوماً، وكان الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب قد سار من مدينة حران إلى رأس عين نجدة لقطب الدين صاحب سنجار ونصيبين ، وقد اتفق هو ومظفر الدين صاحب إربل ، وصاحب الحصن وآمد ، وصاحب جزيرة ابن عمر وغيرهم على ذلك وعلى منع نور الدين من أخذ شيء من بلاده ، وكلهم خائفون منه ولم يمكنهم الاجتماع ، وهو على نصيبين ، فلما فارقها نور الدين سار الأشرف إليها ، وأتاه أخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب الحصن ، وصاحب الجزيرة، وصاحب دارا ، وساروا غن نصيبين نحو بلد البقعا

قريباً من بوشري ، وسار نور الدين من تل أعْفَرَ(2) إلى كفر زمار(3)، وعزم على المطاولة ليتفرقوا ، فأتاه كتاب من بعض مماليكه يسمى جرديك ، وقد أرسله يتجسس أخبارهم ، فيقللهم في عينه ويطمعه فيهم ، ويقول إن أذنت لي لقيتهم بمفردي ، فسار حينئذ نور الدين إلى بوشري فوصل إليها من الغد الظهر وقد تعبت دوابه وأصحابه ، ولقوا شدة من الحر فنزل بالقرب منهم أقل من ساعة، وأتاه الخبر أن عساكر الخصم قد ركبوا ، فركب هو وأصحابه ، وساروا نحوهم ، فلم يروا لهم أثراً ، فعاد إلى خيامه ونزل هو وعساكره ،

(ا) بلد : مدينة قديمة على دجلة نرق الموصل .

(2) تل أعفر : اسم قلعة ورمض بين سنجار والموصل فى وسط وادٍ فيه نهر جارٍ .

(3) كفر زمار : قرية من قرى الموصل .

وتفرق كثير منهم في القرى لتحصيل العلوفات ، وما يحتاجون إليه ، فجاءه من أخبره بحركة الخصم وقصده ، فركب نور كل الدين وعسكره ، وتقدموا إليهم وبينهم نحو فرسحين ، فوصلوا وقد زاد تعبهم والخصم مستريح ، فالتقوا واقتتلوا ، فلم يطل الحرب بينهم حتى انهزم عسكر نور الدين وانهزم هو أيضاً، وطلب الموصل فوصل إليها في أربعة أنفس وتلاحق الناس ، وأتى الأشرف ومن معه فنزلوا في كفر زمار ونهبوا البلاد نهباً قبيحاً، وأهلكِوا ما لم يصل لهم لا سيما مدينة بلد، فإنهم أفحشوا في نهبها، ومن أعجب ما سمعنا أن امرأة كانت تطبخ ، فرأت النهب ، فألقت سوارين كانتا في يديها فيِ النار، وهربت ، فجاء بعض الجند ونهب ما في البيت ، فرأى فيه بيضاً فأخذه وجعله في النار ليأكله ، فحرك ، فرأى السوارين فيها فأخذهما وطال مقامهم والرسل تتردد في الصلح ، فوقف الأمر على إعادة تل أعفر، ويكون الصلح على القاعدة الأولى ، وتوقف نور الدين في إعادة تل أعفر، فلما طال الأمر سلمها إليهم ، واصطلحوا أوائل سنة إحدى وستمائة ، وتفرقت العساكر من البلاد .

ذكر خروج الفرنج بالشام إلى بلاد الإِسلام والصلح معهم

في هذه السنة خرج كثير من الفرنج في البحر إلى الشام ، وسهل الأمر عليهم بذلك لملكهم قسطنطينية، وأرسوا بعكا، وعزموا على قصد البيت المقدس –حرسه الله – واستنقاذه من المسلمين ، فلما استراحوا بعكا ساروا فنهبوا كثيراً من بلاد الإِسلام بنواحي الأردن وسبوا وفتكوا في المسلمين ، وكان الملك العادل بدمشق ، فأرسل في جمع العساكر من بلاد

الشام ومصر، وسار فنزل عند الطور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الإِسلام ، ونزل الفرنج بمرج عكا واغاروا على كفر كنا ، فأخذوا كل من بها وأموالهم والأمراء يحثون العادل على قصد بلادهم ونهبها، فلم يفعل ، فبقوا كذلك إلى أن انقضت السنة، وذلك سنة إحدى وشمائة، فاصطلح هو والفرنج على دمشق وأعمالها وما بيد العادل من الشام ، ونزل لهم عن كثير من المناصفات في الرملة وغيرها ، وأعطاهم ناصرة وغيرها ، وسار نحو الديار المصرية ، فقصد الفرنج مدينة حماة فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم ، وكان في قلة فهزموه إلى البلد، فخرج العامة إلى قتالهم ،فقتل الفرنج منهم جماعة وعاد الفرنج .

ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل وولاية أيتغمش

قد ذكرنا قبل تغلب كوكجة مملوك البهلوان على الري وهمذان وبلد الجبل ، وبقي الآن ، وكان قد اصطنع مملوكاً آخر كان للبهلوان اسمه أيتغمش ، وقدمه وأحسن إليه ووثق به ، فجمع أيتغمش الجموع من المماليك وغيرهم ، ثم قصد كوكجة فتصافا واقتتل الفريقان ، فقتل كوكجة في الحرب واستولى أيتغمش على البلاد، وأخذ معه أوزبك بن البهلوان له اسم الملك ، وأيتغمس هو المدبر له والقيم بأمر المملكة، وكان شهماً شجاعا ظالما، وكان كوكجة عادلاً حسن السيرة رحمه الله .

ذكر وفاة ركن الدين بن فلج أرسلان وملك ابنه بعده

وفي هذه السنة سادس ذي القعدة توفي ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق صاحب ديار الروم ما بين ملطية وقونية ، وكان موته بمرض القولنج في سبعة أيام ، وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكورية ، وتسمى أيضاً أنقرة، وير مدينة منيعة ، وكان مشاققا لركن الدين فحصره عدة سنين حق ضعف ، وقلت الأقوات عنده ، فأذعن بالتسليم على . عوض يأخذه ، فعوضه قلعة في أطراف بلده ، وحلف له عليها، فنزل أخوه عن مدينة أنقرة وسلمها ، ومعه ولدان له ، فوضع ركن الدين عليه من أخذه وأخذ أولاده معه فقتله ، فلم يمض غير خمسة أيام حتى أصابه القولنج فمات ، واجتمع الناس بعده على ولد. قلج أرسلان ، وكان صغيراً فبقي في الملك إلى بعد سنة إحدى وستمائة، وأخذ منه على ما نذكره هناك ، ونهان ركن الدين شديداً على الأعداء قيما بأمر الملك ،

إلا أن الناس كانوا ينسبون إلى فساد الاعتقاد، كان يقال : إنه يعتقد أن مذهبه مذهب الفلاسفة ، وكان كل من يرمى بهذا المذهب يأوي إليه ،ولهذه الطائفة منه إحسان كثير، إلا أنه كان عاقلاً فلا يحب ستر هذا المذهب لئلا ينفر الناس عنه . حكي لي عنه أنه كان عنده إِنسان ، وكان يرمى بالزندقة ومذهب الفلاسفة ، وهو قريب منه ، فحضر يوماً عنده فقيه فتناظرا ، فأظهر شيئاً من اعتقاد الفلاسفة فقام الفقيه إليه ولطمه وشتمه بحضرة ركن الدين ، وركن الدين سافي وخرج الفقيه ، فقال لركن الدين : يجري على مثل هذا في حضرتك ، ولا تنكره . فقال : لو تكلمت لقتلنا جميعاً، ولا يمكن إظهار ما تريده أنت .

ذكر قتل الباطنية بواسط

في هذه السنة في رمضان قُتل الباطنية بواسط ، وسبب كونهم بها وقتلهم ، أنه ورد إليها رجل يعرف بالركم محمد بن طالب بن عصية وأصله من القاروب من قرى واسط ، وكان باطنيا ملحدا ، ونزل مجاوراً لدور بني الهروي وغشيه الناس ، وكثر أتباعه ، وكان ممن يغشاه رجل يعرف بحسن الصابوني ، فاتفق أنه اجتاز بالسويقة، فكلمه رجل نجار قي مذهبهم ، فرد عليه الصابوني رداً غليظاً، فقام إليه النجار وفتله وتسامع الناس بذلك ، فوثبوا وقتلوا من وجدوا ممن ينتسب إلى هذا المذهب ، وقصدوا دار ابن عصية وقد اجتمع إليه خلق من أصحابه ، وأغلقوا الباب وصعدوا إلى سطحها ومنعوا الناس عنهم ، فصعدوا إليهم من بعض الدور من على السطح ، وتحصن من بقي في الدار باغلاق الأبواب والممارق ، فكسروها ونزلوا ، فقتلوا من وجدوا في الدار، وأحرقوا ، وقتل ابن عصية وفتح الباب وهرب منهم ، فقتلوا ، وبلغ الخبر إلى بغداد، وانحدر فخر الدين أبو البدر بن أمسينا الواسطي لإصلاح الحال وتسكين الفتنة .

ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حضرموت

في هذه السنة استولى إنسان اسمه محمود بن محمد الحميري على مدينة مرباط وظفار وغيرهما من حضرموت ، وكان ابتداء أمره أنه له مركب يكريه في البحرللتجار، ثم وزر لصاحب مرباط ، وفيه كرم وشجاعة وحسن سيرة، قلما توفي صاحب مرباط ملك المدينة بعده ، وأطاعه الناس محبة له لكرمه وسيرته ، ودامت أيامه بها، فلما كان سنة تسع عشرة وستمائة خرب مرباطا وظفارا، وبنى مدينة جديدة على ساحل

البحر بالقرب من مرباط ، وعندها عين عذبة كبيرة أجراها إلى المدينة، وعمل عليها سوراً وخندقاً وحصنها وسماها الأحمدية، وكان يحب الشعر ويكثر الجائزة عليه .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خرج أسطول من الفرنج إلى الديار المصرية، فنهبوا مدينة فوة، وأقاموا خمسة أيام يَسبُون وينهبون ، وعساكر مصر مقابلهم بينهم النيل ليس لهم وصول اليهم لأنهم لم تكن لهم سفن .

وقيها كانت زلزلة عظيمة عمت كثر البلاد مصر والشام والجزيرة وبلاد الروم

وصقلية وقبرس ، ووصلت إلى الموصل والعراق وغيرها، وخربت من مدينة صور سورها، وأثرت في كثير من الشام .

وفيها في رجب اجتمع جماعة من الصوفية برباط شيخ الشيوخ ببغداد، وفيهم صوفي اسمه أحمد بن إبراهيم الداري ومن أصحاب شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل رحمهم الله ومعهم مغن يغني بقول الشعر:

¬ أعاذلتي أقصري *كَفى بمشيبي عذلْ شبابٌ كأنْ لم يَكُنْ *وشيب كأن لم يَزَلْ

⌙ وحقُّ ليالي الوصال * وآخرها والأول وصفرةُ لونِ المحبَ *عند استماعِ العذل

⊏ لئن عاد عيشي بكم * حلا العيش لي واتصل

فتحرك الجماعة عادة الصوفية في السماع ، وطرب الشيخ المذكور وتواجد، ثم سقط مغشياً عليه ، فحركوه فإذا هو ميت فصلي عليه ودفن وكان رجلًا صالحاً.

وفيها توفي أبو الفتوح أسعد بن محمود العجلي الفقيه الشافعي بأصفهان في صفر،وكان إماماً فاضلاً . وفي رمضان منها توفي قاضي هراة عمدة الدين الفضل بن محمود بن صاعد الساوي ، وولي بعده ابنه صاعد .

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة

ذكر ملك كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد الروم من ابن أخيه

في هذه السنة في رجب منك غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد الروم التي كانت بيد أخيه ركن الدين سليمان ، وكان سبب ملك غياث الدين لها أن ركن الدين كان قد أخذ ما كان لأخيه غياث الدين ، وهو مدينة قونية ، فهرب غياث الدين منه ، وقصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين – صاحب حلب ، فلم يجد عنده قبولًا وقصر به فسار من عنده ، وتقلب في البلاد إلى أن وصل إلى القسطنطينية، فأحسن إليه ملك الروم وأقطعه وأكرمه ، فأقام عنده وتزوج بابنة بعض البطارقة الكبار، وكان لهذا البطريق قلعة من عمل القسطنطينية، فلما ملك الفرنج القسطنطينية هرب غياث الدين إلى حميه ، وهو بقلعته ، فأنزله عنده ، وقال له اشترك في هذه القلعة وتقنع بداخلها، فأقام عنده ، قلما مات أخوه سنة ستمائة – كما ذكرناه – اجتمع الأمراء على ولده ، وخالفهم الأتراك الأوج ، وهم كثير بتلك البلاد، وأنف من اتباعهم ، وأرسل إلى غياث الدين يستدعيه إليه ليملكه البلاد، فسار إليه فوصل في جمادى الأولى اجتمع به ، وكثر جمعه وقصد مدينة قونية ليحصرها، وكان ولد ركن الدين والعساكر بها، فأخرجوا إليه طائفة من العسكر فلقوه فهزموه ، فبقي حيران لا يدري أين يتوجه ، فقصد بلدة صغيرة يقال لها أو كرم بالقرب من قونية ، فقدر الله تعالى أن أهل مدينة اقصرا وثبوا–على الوالي فأخرجوه منها، ونادوا بشعار غياث الدين ، فلما سمع أهل قونية بما فعله أهل اقصرا قالوا : نحن أولى بفعل هذا لأنه كان حسن السيرة فيهم لما كان ملكهم ، فنادوا باسمه أيضاً وأخرجوا من

عندهم ، واستدعوه ، فحضر عندهم ، وملك المدينة وقبض ابن أخيه ومن معه ، وآتاه الله الملك ، وجمع له البلاد جميعها في ساعة واحدة، فسبحان من اذا أراد أمراً هيأ أسبابه ، وكان أخوه قيصر شاه الذي كان صاحب ملطية لما أخذها ركن

الدين منه سنة سبعٍ وتسعين خرج منها وقصد الملك العادل أبا بكر بن أيرب لأنه كان زوج ابنته مستنصرا به ، فأمره بالمقام بمدينة الرها، فأقام بها، فلما سمع بملك أخيه غياث الدين سار إليه ، فلم يجد عنده قبولاً إنما أعطاه شيئاً وأمره بمفارقة البلاد، فعاد إلى الرها ، وأقام بها . فلما استقر ملك غياث الدين سار إليه الأفضل صاحب سميساط ، فلقيه بمدينة قيسارية ، وقصده أيضاً نظام الدين صاحب خرت برت ، وصار معه فعظم شأنه وقوي أمره .

ذكر حصر صاحب آمد خَرت برِتَ ورجوعه عنها

كانت خرت برت لعماد الدين بن قرا أرسلان ، فمات وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر، والتجأ إلى ركن الدين بن قلج أرسلان ، وبعده إلى أخيه غياث الدين ليمتنع به من ابن عمه ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أسلان ، فامتنع به ، وكان صاحب آمد ملتجئا إلى الملك العادل ، وفي طاعته ، وحضر مع ابنه الملك الأشرف قتال صاحب الموصل على شرط أنه يسير معه عساكره ، ويأخذ له خرت برت ، وإنما طمع فيها بموت ركن الدين ، فلما دخلت هذه السنة طلب ما كان استقر الأمر عليه ، فسار معه الملك الأشرف وعساكر ديار الجزيرة من سنجار وجزيرة ابن عمر والموصل وغيرها، وكان نزولهم عليها في شعبان ، وفي رمضان تسلموا ربضها، وكان قد اجتمع بغياث الدين بعد أن ملك البلاد الرومية، وصار معه في طاعته ، فلما نزل صاحب آمد على خرت برت خاطب صاحبها غياث الدين يستنجده بعسكر يرحلهم عنه ، فجهز عسكراً كثيراً عدتهم ستة آلاف فارس ، وسيرهم مع الملك

الأفضل صاحب سميساط ، فلما وصل العسكر إلى ملطية فارق صاحب آمد ومن معه من خرت برت ، ونزلوا إلى الصحراء، وحصروا البحيرة المعروفة ببحيرة سنين ، وبها حصنان ، أحدهما لصاحب آمد، والآخر لصاحب خرت برت ، فحصره وزاحفه ، ففتحه ثاني ذي الحجة، ووصل صاحب خرت برت مع العسكر الرومي إلى خرت برت ، فرحل صاحب آمد عن البحيرة، وقوى الحصن الذي فتحه قيها، فأزاح علته ورحل إلى خلف مرحلة، ونزل ، وترددت الرسل والعسكر الرومي يطلب إعادة البحيرة، وصاحب آمد يمتنع فن ذلك ، فلما طال الأمر بقي الحصن بيد صاحب آمد، وانفصل العسكران ، وعاد كل فريق الى بلاده .

ذكر الفتن ببغداد

في سابع عشر شعبان جرت فتنة ببغداد بين أهل باب الأزج وأهل المأمونية، وسببها أن أهل باب الأزج قتلوا سبعاً وأرادوا أن يطوفوا به ، فمنعهم أهل المأمونية، فوقعت الفتنة بينهما عند البستان الكبير، فجرح منهم خلق كنير، وقتل جماعة وركب صاحب الباب لتسكين الفتَنة، فجرح فرسه ، فعاد، فلتا كان الغد صار أهل المأمونية إلى باب الأزج ، فرقعت بينهم فتنَة شديدة وقتال بالسيوف والنشاب ، واشتد الأمر فنهبت الدور القريبة منهم ، وسعى الركن بن عبد القادر ويوسف في تسكين الناس ، وركب الأتراك ، فصاروا يبيتون تحت المنظرة، فامتنع أهل – الفتنة من الاجتماع فسكنوا .

وفي العشرين منه جرت فتنة بين أهل قطفتا والقرية من محال الجانب الغربي بسبب قتل سبع أيضاً أراد أهل قطفتا أن يجتمعوا ويطوفوا به فمنعهم أهل القرية أن يجروا به عندهم فاقتتلوا ، وقتل بينهم عدة قتلى ، فأرسل إليهم عسكر من الديوان لتلاني الأمر، ومنع الناس عن الفتنة فامتنعوا، رفي تاسع رمضان كانت فتنة بين أهل سوق السلطان والجعفرية ،منشؤها أن رجلين من المحلتين اختصما وترعد كل واحد منهما صاحبه ، فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا في مقبرة الجعفرية ، فسير إليهم من الديران من تلافى الأمر وسكنه ، فلما كثرت الفتن وتعب أمير كبير من مماليك الخليفة ومعه جماعة كثيرة، فطاف في البلد، وقتل جماعة ممن فيه شبهة، فسكن الناس .

ذكر غارة الكرج على بلاد الإسلام

في هذه السنة أغارت الكرج على بلاد الإسلام من ناحية أذربيجان ، فأكثروا العيث والفساد والنهب والسبي ،ثم أغاروا على ناحية خلاط من أرمينية، فأوغلوا في البلاد حتى بلغوا ملازكرد، ولم يخرج إليهم أحد من المسلمين يمنعهم ، فجاسوا خلال البلاد، ينهبون ويأسرون ، وكلما تقدموا تأخرت عساكر المسلمين منهم ، ثم إِنهم رجعوا، فالله تعالى ينظر إلى الإسلام وأهله ويبسر لهم من يحمي بلادهم ويحفظ ثغورهم ويغزو أعداءهم .

رفيها أغارت الكرج على بلاد خلاط ، فأتوا الى أرجيش ونواحيها فنهبوا وسبوا وخربوا البلاد، وساروا إلى حصن التين من أعمال خلاط ،وهو مجاور أزن الروم ،

فجمع صاحب خلّاط عسكره ، وسار إلى طغل شاه ولد قلج أرسلان صاحب أرزن الروم ، فاستنجده على الكرج ، فسير عسكره جميعه معه ، فتوجهوا نحو الكرج ، فلقوهم وتصافوا واقتتلوا ، فانهزمت الكرج ، وقتل زكرى الصغير، وهو من أكابر مقدميهم ، وهو الذي كان مقدم هذا العسكر من الكرج ، والمقاتل بهم وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والكراع ، وغير ذلك ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وأسروا كذلك ، وعاد إلى بلاده .

ذكر الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة

وفي هذه السنة أيضاً كانت الحرب ، بين الأمير قتادة الحسيني أمير مكة، وبين الأمير سالمِ بن قاسم الحسيني أمير المدينة، ومع كل واحد منهما جمع كثير، فاقتتلوا قتالاً شديداً . وكانت الحرب بذي الحليفة بالقرب من المدينة، وكان قتادة قد قصد المدينة ليحصرها ويأخذها، فلقيه سالم بعد أن قصد الحجرة على ساكنها الصلاة والسلام ، فصلى عندها ودعا وسار فلقيه ، فانهزم قتادة وتبعه سالم إلى مكة فحصره بها ، فأرسل قتادة إلى من مع سالم من الأمراء ، فأفسدهم عليه فمالوا إليه وحالفوه ، فلما رأى سالم ذلك رحل عنه عائداً إلى المدينة ، وعاد أمر قتادة قوياً .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة، قطعت خطبة ولي العهد، وأظهر خط قرىء بدار الوزير نصير الدين بن مهدي الرازي ، وإذا هو خط ولي العهد الأمير أبي نصر بن الخليفة إلى أبيه الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، يتضمن

العجز عن القيام بولاية العهد، ويطلب الإقالة، وشهد عدلان أنه خطه ، وأن الخليفة أقاله ، وعمل بذلك محضر شهد فيه القضاة والعدول والفقهاء .

وفي هذه السنة ولدت امرأة ببغداد ولداً له رأسان وأربع أرجل ويدان ومات في يومه .

وفيها أيضاً وقع الحريق في خزانة السلاح التي للخليفة، فاحترق فيها منه شيء كثير، وبقيت النار يومين ، وسار ذكر هذا الحريق في البلدان ، فحمل الملوك من السلاح إلى بغداد شيئاً كثيراً. وفي هذه السنة وقع الثلج ، بمدينة هراة أسبوعاً كاملاً، فلما سكن

جاء بعده سيل من الجبل من باب سرا، خرّب كثيراً،من البلد، ورمى من حصنه قطعة عظيمة، وجاء بعده برد شديد أهلك الثمار، فلم يكن بها تلك السنة شيء إلا اليسير. وفيها في شعبان خرج عسكر من الغورية مقدمهم الأمير زنكي بن مسعود إلي مدينة مرو، فلقيهم نائب خوارزم شاه بمدينة سرخس ، وهو الأمير جقر، وكمن لهم كميناً، فلما وصلوا إليه هزمهم ، وأخذ وجوه الغورية أسرى، فلم يفلت منهم إلا القليل ، وأخذ أميرهم زنكي أسيراً ، فقتل صبراً وعلقت رؤسهم بمرو أياماً .

وفيها في ذي القعدة سار الأمير عماد الدين عمر بن الحسين الغوري – صاحب بلخ إلى مدينة ترمذ، وهي للأتراك الخطا، فافتتحها عنوة وجعل بها ولده الأكبر، وقتل من بها من الخطا، ونقل العلويين منها إلى بلخ ، وصارت ترمذ دار إسلام ، وهي من أمنع الحصون وأقواها .

وفيها توفي صدر الدين السجزي شيخ خانكاه السلطان بهراة : وفيها في صفر توفي أبو علي الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر الواسطي وهو من الشعراء المجيدين ، واجتمعت به بالموصل وردها مادحاً لصاحبها نور الدين أرسلان شاه وغيره من المقَدمين ، وكان نعم الرجل حسن الصحبة والعشرة . وفيها اجتمع ببغداد رجلان أعميان على رجل أعمى أيضاً ، وقتلاه بمسجد طمعاً أن يأخذا منه شيئاً ، فلم يجدا معه ما يأخذانه ، وأدركهما الصباح ، فهرِبا من الخوف يريدان الموصل وروي الرجل مقتولًا ولم يعلم قاتله ، فاتفق أن بعض أصحاب الشحنة اجتاز من الحريم في خصومة جرت ، فرأى

الرجلين الضريرين ، فقال : لمن معه : هذان اللذان قتلا الأعمى – يقوله مزحاً – فقال أحدهما : هذا والله قتله . فقال الآخر: بل أنت قتلته ، فأخذا إلى صاحب الباب ، فأقرّا ، فقتل أحدهما، وصلب الآخر على باب المسجد الذي قتلا فيه الرجل .

ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة

ذكر الفتنة بهراة

في هذه السنة في المحرم ثار العامة بهراة، وجرت فيه فتنة عظيمة بين أهل السوقين – الحدادين والصفارين – قتل فيها جماعة ، ونهبت الأموال ، وخربت الديار، فخرج أمير البلد ليكفهم ، فضربه بعض العامة بحجر ناله منه ألم شديد، واجتمع الغوغاء عليه ، فرفع إلى القصر الفيروزي ، واختفى أياماً إلى أن سكنت الفتنة ثم طهر.

ذكر قتال شهاب الدين الغوري بني كوكر

قد ذكرنا انهزام شهاب الدين محمد بن سام الغوري صاحب غزنة من الخطا الكفار ، وأن الخبر طهر ببلاده أنه عدم من المعركة لم يقف أصحابه له على خبر ، فلما اشتهر هذا الخبر ثار المفسدون في أطراف البلاد ، وكان ممن أفسد دانيال صاحب الجودي ، فإنه كان قد أسلم ، فلما بلغه الخبر ارتد عن الإسلام ، وتابع بني كوكر ومساكنهم في جبال بين لهاوور والمولتان حصينة منيعة ، وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين وحملوا له الخراج ، فلما بلغهم خبر عدمه ثاروا فيمن معهم من قبائلهم وعشائرهم ، وأطاعوا صاحب جبل الجودي وغيره من القاطنين بتلك الجبال ، ومنعوا الطريق من لهاوور وغيرها إلى غزنة ، فلما بلغ شهاب الدين من قتل مملوكه أيبك ، وقد ذكرناه أرسل إِلى نائبه بلهاوور والمولتان ، وهو محمد بن أبي علي يأمره بحمل المال لسنة ستمائة وسنة إحدى وستمائة ليتجهّز به لحرب الخطا ، فأجاب أن أولاد كوكر قد قطعوا الطريق ولا يمكنه إرسال المال ، وحضر جماعة من التجار، وذكروا أن قفلا كبيراً أخذه أولاد كوكر ولم ينج منه إلا القليل ،

فأمر شهاب الدين مملوكه أيبك مقدم عساكر الهند أن يراسل بني كوكر، يدعوهم إلى الطاعة ، ويتهددهم إن لم يجيبوا ، ففعل ذلك ، فقال ابن كوكر: لأي معنى لم يرسل السلطان إلينا رسولاً، فقال له الرسول : وما قدركم أنتم حق يرسل إليكم ، وإنما مملوكه يبصركم وضدكم ويهددكم ، فقال ابن كوكر : لو كان شهاب

الدين حياً لراسلنا، وقد كنا ندفع الأموال إليه ، فحيث عدم فقل لأيبك يترك لنا لهاوور وما والاها وفرشابور ونحن نصالحه ، فقال الرسول : نفذ أنت جاسوسا نثق إليه يأتيك بخبر شهاب الدين من فرشابور، فلم يصغ إلى قوله فرده ، فعاد وأخبر بما سمع ورأى، فأمر شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيبك بالعود الى بلاده ، وجمع العساكر وقتال بني كوكر، فعاد إلى دهلى وأمر عساكره بالاستعداد ، فأقام شهاب الدين في فَرْشَابور(1) إلى نصف شعبان من سنة إحدى وستمائة، ثم عاد إلى غزنة فوصلها أول رمضان ، وأمر بالنداء في العساكر بالتجهز لقتال الخطا، وأن المسير يكون أول شوال ، فتجهزوا لذلك ، فاتفق أن الشكايات كثرت من بني كوكر، وما يتعهدونه من إخافة السبل ، وأنهم قد أنفذوا شحنة إلى البلاد ، ووافقهم أكثر الهنود، وخرجوا من طاعة أمير لهاوور والمولنان وغيرهما، ووصل كتاب الوالي يذكر ما قد دهمه منهم وأن عماله قد أخرجهم بنو كوكر، وجبوا الخراج ، وأن ابن كوكر مقدمهم أرسل اليه ليترك له لهاوور والبلاد وإلا قتله ، ويقول له : إن لم يحضر السلطان شهاب الدين بنفسه ومعه العساكر وإلا خرجت البلاد من يده.

وتحدث الناس بكثرة من معهم من الجموع وما لهم من القوة، فتغير عزم شهاب الدين حينئذ عن غزو الخطا . وأخرج خيامه وسار عن غزنة خامس ربيع الأول سنة اثنتين وستمائة، فلما سار وأبعد انقطعت أخباره عن الناس بغزنة وفرشابور، حتى أرجف الناس بانهزامه ، وكان شهاب الدين لما سار عن فَرْشَابور أتاه خبر ابن كوكر أنه نازل في عساكره ما بين حبلم

وسودرة، فجد السير إليه ، فدهمه قبل الوقت الذي كان يقدر وصوله فيه ، فاقتتلوا قتالًا شديداً يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الآخر من بكرة إلى العصر، واشتد القتال ، فبينما .هم في القتال وإذ قد أقبل قطب الدين أيبك في عساكره ، فنادوا بشعار الإسلام وحملوا حملة صادقة، فانهزم الكوكرية ومن انضم إليهم ، وقتلوا بكل مكان ، وقصدوا أجمة هناك فاحتموا بها وأضرموا ناراً ، فكان أحدهم يقول لصاحبه لا تغرك المسلمين يقتلونك ، ثم يلقي نفسه في النار، فيلقي صاحبه نفسه بعده فيها، فعمهم الفناء قتلاً وحرقاً، { فبعدا للقوم الظالمين }(2) وكان أهلهم وأموالهم معهم لم

(ا) فرشابور: مدينة وولاية واسعة من أعمال لهاوور بينها وبين غزنة.

(2) سورة المؤمنين: 41 .

يفارقوها، فغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله حتى إن المماليك كانوا يباعون كل خمسة بدينار ركني ونحوه ، وهرب ابن كوكر بعد أن قتل إخوته وأهله ، وأما ابن دانيال صاحب جبل الجودي ، فإنه جاء ليلًا إلى قطب الدين أيبك فاستجار به فأجاره ، وشفع قيه إلى شهاب الدين فشفعه فيه وأخذ منه قلعة الجودى ، فلما فرغ منهم سار نحو لهاوور ليؤمن أهلها ويمكن روعهم ، وأمر الناس بالرجوع إلى بلادهم والتجهيز لحرب الخطا ، وأقام شهاب الدين بلهاوور إلى سادس عشر رجب ، وعاد نحو غزنة ، وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب باميان ليتجهز للمسير إلى سمرقند ويعمل جسراً ليعبر هو وعساكره عليه .

ذكر الظفر بالتيراهية

كان من جملة الخارجين المفسدين أيضاً على شهاب الدين التيراهية، فإنهم خرجوا إلى حدود سوران ومكرهان للغارة على المسلمين ، فأوقع بهم نائب تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين بتلك الناحية ويعرف بالخايجي ، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وحمل رؤوس المعروفين فعلّقت ببلاد الإسلام ، وكانت فتنة هؤلاء التيراهية على بلاد الإسلام عظيمة قديماً وحديثاً، ونهان إذا وقع بأيديهم أسير من المسلمين عذبوه بأنواع العذاب ، وكان أهل فرشابور معهم في ضرّ شديد لأنهم يحيطون بتلك الولاية من جوانبها لا سيما آخر أيام سبكتكين ، فإن الملوك ضعفوا وقوي هؤلاء عليهم ، وكانوا يغيرون على أطراف البلاد، وكانوا كفّاراً، لا دين لهم يرجعون إليه ، ولا مذهب يعتمدون عليه ، إلا أنهم كانوا إذا ولد لأحدهم بنت ، وقف على باب داره

ونادى من يتزوج هذه من شبلها ، فإن أجابه أحد تركها وإلا قتلها ، ويكون للمرأة عدة أزواج ، فإذا كان أحدهم عندها جعل مداسه على الباب ، فإذا جاء غيره من أزواجها ورأى مداسه عاد، ولم يزالوا كذلك حتى أسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغوري ، فكفوا عن البلاد ، وسبب إسلامهم أنهم أسروا إنساناً من فرشابور فعذبوه فلم يمت ، ودامت أيامه عندهم ، فأحضره يوماً مقدمهم وسأله عن بلاد الإسلام ، وقال له : لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطيني ؟ فقال له : كان يعطيك الأموال والأقطاع ويرد إليك حكم جميع البلاد التي لكم ، فأرسله إلى شهاب الدين في الدخول في الِإسلام ، فعاد ومعه رسول بالخلع والمنشور بالإقطاع ، فلما وصل إليه الرسول سار هو وجماعة من أهله